

في ظلال القرآن

الجزء السابع عشر

بقلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار اجيائة الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء السابع عشر

بقلم
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار اجيائ الكتب العربية
عيسى الباني الحلبى وشركاه

من سورة الأنبياء والحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ
وآياتها ١١٢ نزلت بعد سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ
مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا :
هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ؟ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ؟ * قَالَ : رَبِّي يَعْلَمُ
الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، بَلْ
أَفْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا
أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا
الْمُسْرِفِينَ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ
قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأُسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا
يِرْكُضُونَ * لَا تَرَ كُضُوعًا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ *
قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَامِدِينَ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَ نَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ يَمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .

« أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ؟ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ! قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .

« وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ! بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

« أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

« وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَخْلَدًا ، أَفَأَنْ مِتَّ فَهُمْ أَخْلَادُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . »

هذه السورة ، مكية تعالج الموضوع الرئيسى الذى تعالجه السور المكية . . موضوع العقيدة . . تعالجه فى ميادنيه الكبيرة : ميادين التوحيد ، والرسالة والبعث .

وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها . فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى ؛ وهى تقوم على الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وعلى الجد الذى تدبر به السماوات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبا ، ولم يشب خلقه باطل : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » ..

ومن ثم يحول بالناس .. بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم . . بين مجالى الكون الكبرى : السماء والأرض . الرواسى والفجاج . الليل والنهار . الشمس والقمر موجهها أنظارهم إلى وحدة النواميس التى تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر ، والمالك الذى لا شريك له فى الملك ، كما أنه لا شريك له فى الخلق . . « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ..

ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التى تحكم الحياة فى هذه الأرض ، وإلى وحدة مصدر الحياة : « وجعلنا من الماء كل شئ حى » وإلى وحدة النهاية التى ينتهى إليها الأحياء : « كل نفس ذائقة الموت » .. وإلى وحدة المصير الذى إليه ينتهون : « ثم إلينا ترجعون » .. والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهى واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .. وقد اقتضت مشيئة الله أن يكون الرسل كلهم من البشر : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم » ..

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة فى الأرض . فالسنة التى لا تتخلف أن يغلب الحق فى النهاية وأن يزهد الباطل ، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية : « بل نقذف بالباطل فیدمغه فإذا هو زاهق » .. وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين ، وينجى الله الرسل والمؤمنين : « ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » .. وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ..

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضا سريعا . يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة ابراهيم - عليه السلام - وعند الإشارة إلى داود وسليمان . ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، واسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وفى هذا الاستعراض تتجلى المعانى التى سبقت فى سياق السورة . تتجلى . فى صورة وقائع فى حياة الرسل والدعوات ، بعد ما تجلت فى صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ؛ وتتمثل فيها تلك المعانى نفسها فى صورة واقع يوم القيامة ..

وهكذا تتجمع الإيقاعات المنوعة فى السورة على هدف واحد ، هو استجاشة القلب البشرى لإدراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها خاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم - فلا يتلقاها الناس غافلين معرضين لاهين كما يصفهم فى مطلع السورة : « اقرب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتىهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعته وهم يلعبون . لاهية قلوبهم .. »

إن هذه الرسالة حق وجد . كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهو فى استقبال الرسالة ؛ ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ؛ وآيات الله فى الكون وسنن الكون كله . توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

* * *

نظم هذه السورة من ناحية بنائه اللفظى وإيقاعه الموسيقى هو نظم التقرير ، الذى يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق فى عرض هذا الموضوع . . يبدو هذا واضحا بموازنته بنظم سورتي مريم وطه مثلا . فهناك الإيقاع الرخى الذى يناسب جوها . وهذا الإيقاع المستقر الذى يناسب موضوع السورة وجوها ..

ويزيد هذا وضوحا بموازنة نظم قصة ابراهيم - عليه السلام - فى مريم ونظمها هنا .

وكذلك بالتأمل في الحلقة التي أخذت منها هنا الحلقة التي أخذت منها هناك . ففي سورة مريم أخذت حلقة الحوار الرخى بين إبراهيم وأبيه . أما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام ، وإلقاء إبراهيم في النار . لئتم التناسق في الموضوع والجو والنظم والإيقاع .

* * *

والسياق في هذه السورة يمضى في أشواط أربعة :

الأول : ويبدأ بمطلع قوى الضربات ، يهز القلوب هذا ، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحقق ، وهى عنه غافلة لاهية : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ... الخ » . ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين ، الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين ، فعاشوا سادرين في الغى ظالمين : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين . فإزالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » . .

ثم يربط بين الحق والجد في الدعوة ، والحق والجد في نظام الكون . وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود . وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة . ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذى أسلفناه .

فأما الشوط الثانى فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب والعذاب منهم قريب . . وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة . ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسول قبلهم . ويقرر أن ليس لهم من الله من عاصم . ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهى تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها ، فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التى جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء . .

وينتهى هذا الشوط بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيان وظيفته : « قل : إنما أنذركم بالوحي » وإلى الخطر الذى يهددهم فى غفلتهم : « ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » حتى تنصب الموازين القسط وهم فى غفلتهم سادرون .

ويتضمن الشوط الثالث استعراض أمة النبيين ، وفيها تتجلى وحدة الرسالة والعقيدة .
كما تتجلى رحمة الله بعباده الصالحين وإيخاؤه لهم وأخذ المكذبين .

أما الشوط الرابع والأخير فيعرض النهاية والمصير ، في مشهد من مشاهد القيامة المثيرة :
ويتضمن ختام السورة بمثل ما بدأت : إيقاعا قويا ، وإنذارا صريحا ، وتخلية بينهم وبين
مصيرهم المحتوم . .

* * *

والآن نأخذ في دراسة الشوط الأول بالتفصيل . .

« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا
استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا . هل هذا إلا بشر مثلكم .
أفتأتون السحر وأتم تبصرون ؟ قال : ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم .
بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل اقترأ ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت
قبلهم من قرية أهلكناها . . أفهم يؤمنون ؟ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فاسألوا
أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين .
ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » . .

مطلع قوى يهز الغافلين هذا . والحساب يقترب وهم في غفلة . والآيات تعرض وهم
معرضون عن الهدى . والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته . وكلما جاءهم من
القرآن جديد قابله باللهو والاستهتار ، واستمعوه وهم هازلون يلعبون . . « لاهية قلوبهم » . .
والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير .

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد ، فتلهو في أخطر المواقف ، وتهزل في
مواطن الجد ؛ وتستهتر في مواقف القداسة . فالذكر الذي يأتيهم يأتيهم « من ربهم »
فيستقبلونه لاعبين ، بلا وقار ولا تقديس . والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة
تنتهى إلى حالة من التفاهة والجذب والانحلال ؛ فلا تصلح للنهوض بعبء ، ولا الاضطلاع
بواجب ، ولا القيام بتكليف . وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة !

إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدمات روح مريضة . والاستهتار غير الاحتمال . فلاحتمال
قوة جادة شاعرة . والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء .

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستوراً للحياة ، ومنهاجا للعمل ، وقانونا للتعامل . . . باللعب . ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة . وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان . فحينما خلت الروح من الجسد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه السورة المريضة الشائبة التي يرسمها القرآن . والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ ، لا هدف له ولا قوام !

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذي يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها :

جاء في ترجمة الآمدي لعامر ابن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مشواه . . ثم جاءه هذا الرجل وقد أصاب أرضاً فقال له : إني استقطعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وادياً في العرب . وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك . فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك . نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : « اقرب للناس تخسابهم وهم في غفلة معرضون » . .

وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية للتأثرة ، والقلوب الميتة المغلقة الخاملة . التي تكفن ميتتها باللهو ؛ وتوارى خمودها بالاستهتار ؛ ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة .

« وأسروا النجوى الذين ظلموا » . . وقد كانوا يتناجون فيما بينهم ويتآمرون خفية ، يقولون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟ » .

فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تترنزل بهذا القرآن ؛ فكانوا يلجأون في مقاومة تأثيره الطاغى إلى التعلات ، يقولون : إن محمداً بشر . فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ وإن ما جاء به السحر . فكيف تجيئون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون ؟ !

عند ذلك وكل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرهم وأمره إلى ربه ، وقد أخبره الله بنجواهم التي أداروها بينهم خفية ؛ وأطلعه على كيدهم الذي يتقون به القرآن وأثره !

« قال : ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم » .

فما من نجوى فى مكان على الأرض إلا وهو مطلع عليها - وهو الذى يعلم القول فى السماء والأرض .. وما من مؤامرة يحدثونها إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها - وهو السميع العليم . ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه . فقالوا : إنه سحر . وقالوا : إنه أحلام مختلطة يراها محمد ورويتها . وقالوا : إنه شعر . وقالوا : إنه افتراء وزعم أنه وحى من عند الله :

« بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر » . .

ولم يثبتوا على صفة له ، ولا على رأى يروونه فيه ، لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المزلزل فى نفوسهم بشقى التعلات فلا يستطيعون ؛ فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء ، ومن تعليل إلى تعليل ، حائرين غير مستقرين . . ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التى جاء بها الأولون :

« فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » . .

ولقد جاءت الخوارق من قبل ، فلم يؤمن بها من جاءتهم ، فحل بهم الهلاك ، وفقا لسنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بالخوارق :

« ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها » . .

ذلك أن من يبلغ به العناد ألا يؤمن بالخارقة المادية المحسوسة ، لا يبقى له عذر ، ولا يرجى له صلاح . فيحق عليه الهلاك .

ولقد تكررت الآيات ، وتكرر التكذيب بها ، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين . . فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم ؛ وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين !

« أفهم يؤمنون » . .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » . .

فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلا رجالا ذوى أجساد . وما جعل الله لهم أجسادا ثم جعلهم

لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية .
وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين . . هذه هي سنة الله المطرودة فليسألوا أهل
الكتاب الذي عرفوا الأنبياء من قبل . إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ؛ فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم .
وسلوكلهم العملى نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر
وتهدى ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يعيشون في الأسواق ، ولا يعيشون
النساء . ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين
الناس . فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويتقدون .

وأما داعية لا يحس مشاعر الدين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش
حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل
بما يقول . لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور .

وأما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب .
مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ، ويؤديها
العمل . هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل .

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون
الرسول منزهاً عن انفعالات البشر . . كلهم يتعنتون ويفلون عن هذه الحقيقة . وهي أن
الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها . . لا يمكن أن يحسوا
بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص . وأن الرسول
يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاوئها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور
الحياة العملى لمتبعيه من الناس .

وهناك اعتبار آخر ، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يشير في نفوسهم الرغبة
في تقليده في جزئيات حياته ؛ لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في
تقليد منهجه في حياته اليومية . وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق مافى ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشر كله ، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملائكة الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر ؛ وأجرت عليهم كل مايجرى على البشر من ولادة وموت . ومن عواطف وانفعالات . ومن آلام وآمال . ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء . وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم .. أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض ، بكل مافىها من دوافع وتجارب وعمل وحياة . تلك سنة الله فى اختيار الرسل . ومثلها سنته فى إنجائهم ومن معهم ، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذابين :

« ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين » ..

فهى كذلك سنة جارية كسنة اختيارهم . وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنون معهم إيماناً حقيقياً يصدق العمل ؛ فصدقهم وعده ، وأهلك ، الذين كانوا يسرفون عليهم ، ويتجاوزون الحد معهم .

هذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالإسراف عليه ، وتكذيبه ، وإيذائه والمؤمنين معه . وينبئهم إلى أنه رحمة بهم لم يرسل إليهم بخارقة مادية ، يتبعها هلاكهم ، إذا هم كذبوا بها كما كذب من قبلهم . إنما أرسل إليهم بكتاب يشرفهم لأنه بلغتهم ، ويقوم حياتهم ، ويخلق منهم أمة ذات سيادة فى الأرض وذكر فى الناس . وهو مفتوح للعقول تتدبره ، وترتفع به فى سلم البشرية :

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » ..

إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التى تنقضى فى جيل واحد ، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل .

ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا . فلم يكن لهم قبله ذكر ، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به . ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به البشرية قروناً طويلة ، فسعدوا

وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب . حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذبلا للقافلة يتخطفهم الناس ، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون !

وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد . وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة . فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرقهم وذكرتهم ورفعتهم ، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به . فأما إذا تقدموا إليها عربا فحسب بجنسية العرب . فما هم ؟ وما ذاك ؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب ؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة . . لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب . فذلك لا يساوى شيئا في تاريخ البشرية ، ولا مدلول له في معجم الحضارة ! إنما عرقهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته . وهذا أمر له مدلوله في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة ! .. ذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم ، وهو يقول للمشركين ، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب : « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . أفلا تعقلون ؟ » .

ولقد كانت رحمة بهم أن ينزل الله لهم هذا القرآن . ولا يأتيهم بالحرقة التي يطلبونها . فلا يأخذهم وفق سنته بالقاصمة كالقرى التي كذبت فاستأصلت .. وهنا يعرض مشهدا حيا من القسم والاستئصال :

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون .. قالوا : يا ويلنا نا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » . .

والقسم أشد حركات القطع . وجرسها اللفظي يصور معناها ، ويلقى ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة . فإذا هي مدمرة محطمة . . « ثم أنشأنا بعدها قوما آخرين » .

وهو عند القسم يوقع الفعل على القرى ليشمل مافيا ومن فيها . وعند الانشاء يوقع الفعل على القوم الذين ينشأون ويعيدون إنشاء القرى . . وهذه حقيقة في ذاتها .

قالدمار يحل بالديار والديار . والإنشاء يبدأ بالديارين فيعيدون إنشاء الدور .. ولكن عرض هذه الحقيقة في هذه الصورة يضخم عملية القضم والتدمير ، وهذا هو الظل المراد إلقاؤه بالتعبير على طريقة التصوير (١) ؟

ثم ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى وبأس الله يأخذهم ، وهم كالفيران في المصيدة يضطربون من هنا إلى هناك قبيل الخمود :

« فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون » . .

يسارعون بالخروج من القرية ركضاً وعدوا ، وقد تبين لهم أنهم مأخوذون بيأس الله . كأنما الركض ينجمهم من بأس الله . وكأنما هم أسرع عدوا فلا يلحق بهم حيث يركضون ! ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور .

عندئذ يتلقون التهم المرير :

« لا تركضوا ، وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون » !

لا تركضوا من قريتكم . وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح . .
عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟ !

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب . إنما هو التهم والاستهزاء !

عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط . وأنه لا ينفعهم ركض ، ولا ينقذهم فرار . فيحاولون الاعتراف والتوبة والاستغفار :

« قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا ظالمين » . .

ولكن لقد فات الأوان . فليقولوا ما يشاءون . فإنهم لم يتركوا يقولون حتى يقضى الأمر وتحمد الأنفاس :

« فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » . .

ويا له من حصيد آدمي ، لا حركة فيه ولا حياة ؛ وكان منذ لحظة يمجج بالحركة ، وتضطرب فيه الحياة !

* * *

(١) يراجع فصل : التصوير الفني : وفصل : طريقة القرآن . في كتاب : التصوير الفني في القرآن .

هنا يربط السياق بين العقيدة التي سبق الحديث عنها ، وستنها التي تجري عليها ، والتي تأخذ المكذبين بها . يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل ، اللذين يقوم بهما الكون كله ، ويتلبس بهما خلق السماوات والأرض في صميمه .

فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو ، غافلين عما في الأمر من حق وجد . وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب ، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين . . فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا . إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . .

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة ، لا لعباً ولا لهواً . ودبره بحكمة ، لا جزافاً ولا هوى . وبالجد الذي خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وفرض الفرائض ، وشرع التكاليف .. فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون ، أصيل في تديره ، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس ، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات .

ولو أراد الله - سبحانه - أن يتخذ لهواً لاتخذه من لدنه . لهواً ذاتياً لا يتعلق بشيء من مخلوقاته الحادثة الفانية .

وهو مجرد فرض جدلي : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا » . . ولو - كما يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع . تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط . فالله سبحانه لم يرد أن يتخذ لهواً فلم يكن هناك لهو . لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه .

ولن يكون لأن الله - سبحانه - لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلاً : « إن كنا فاعلين » . . وإن حرف نفي بمعنى ما ، والصيغة لنفي إرادة الفعل ابتداء .

إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة .. هي أن كل ما يتعلق بذات الله - سبحانه - قديم لا حادث ، وبقا غير فان . فلو أراد - سبحانه - أن يتخذ لهواً لما كان هذا اللهو حادثاً ،

ولا كان متعلقاً بحادث كالسما والأرض وما بينهما فكلها حوادث . . إنما كان يكون ذاتياً من لدنه سبحانه . فيكون أزلياً باقياً ، لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية .

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو ، إنما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق ؛ فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض :

« بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » . .

و « بل » للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو ؛ والعدول عنه إلى الحديث في الواقع المقرر الذي تجرى به السنة ويقتضيه الناموس . وهو غلبة الحق وزهوق الباطل .

والتعبير يرسم هذه السنة في صورة حسية حية متحركة . فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة . تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب . .

هذه هي السنة المقررة ، فالحق أصيل في طبيعة الكون ، عميق في تكوين الوجود . والباطل منفي عن خلقه هذا الكون أصلاً ، طارئ لا أصالة فيه ، ولا سلطان له ، يطارده الله ، ويقذف عليه بالحق فيدمغه . ولا بقاء لكى يطارده الله ؛ ولا حياة لكى تقذفه يد الله فتدمغه !

ولقد يخيل للناس أحياناً أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العلم الخبير . وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ، ويبدو فيها الحق منزوياً كأنه مغلوب . وإن هي إلا فترة من الزمان ، يمد الله فيها ما يشاء ، للفتنة والابتلاء . ثم تجرى السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض ؛ وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده ؛ وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه ؛ وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه . . فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حيناً من الدهر عرفوا أنها الفتنة ؛ وأدركوا أنه الابتلاء ؛ وأحسوا أن ربهم يربهم ، لأن فيهم ضعفاً أو نقصاً ؛ وهو يريد أن يعدمهم لاستقبال الحق المنتصر ، وأن يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف . . وكلما سارعوا إلى

العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على أيديهم ما يشاء . أما العاقبة فهي مقررة :
« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » والله يفعل ما يريد .

* * *

هكذا يقرر القرآن الكريم تلك الحقيقة للمشركين ، الذين يقولون على القرآن وعلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء . وهو الحق الغالب الذي يدمغ الباطل ، فإذا هو زاهق . . ثم يعقب على ذلك التقرير بإنذارهم عاقبة ما يقولون :
« ولكم الويل مما تصفون » . .

ثم يعرض لهم نموذجاً من نماذج الطاعة والعبادة في مقابل عصيانهم وإعراضهم . نموذجاً ممن هم أقرب منهم إلى الله . ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته ، لا يفترون ولا يقصرون :
« وله من في السماوات والأرض . ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » . .

ومن في السماوات والأرض لا يعلمهم إلا الله ، ولا يحصيهم إلا الله . والعلم البشري لا يستيقن إلا من وجود البشر . والمؤمنون يستيقنون من وجود الملائكة والجن كذلك لذكرهما في القرآن . ولكننا لا نعرف عنهم إلا ما أخبرنا به خالقهم . وقد يكون هناك غيرهم من العقلاء في غير هذا الكوكب الأرضي ، بطبائع وأشكال تناسب طبيعة تلك الكواكب . وعلم ذلك عند الله .

فإذا نحن قرأنا : « وله من في السماوات والأرض » عرفنا منهم من نعرف ، وتركنا علم من لا نعلم لخالق السماوات والأرض ومن فيهن .

« والذين عند ربك » المفهوم القريب أنهم الملائكة . ولكننا لا نحدد ولا نقيد ما دام النص عاماً يشمل الملائكة وغيرهم . والمفهوم من التعبير أنهم هم الأقرب إلى الله . فكلمة « عند » بالقياس إلى الله لا تعني مكاناً ، ولا تحدد وصفاً .

« ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته » كما يستكبر هؤلاء المشركون « ولا يستحسرون » - أي يقصرون - في العبادة . فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور . .

والبشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة .
فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله . ولو كانت متاعا ذاتيا
بطيبات الحياة !

* * *

وفي ظل التسبيح الذى لا يفتر ولا ينقطع لله الواحد ، مالك السماوات والأرض ومن
فيهن . يحى الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم فى الآلهة . ويعرض السياق دليل
الوحدانية من الشهود فى نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد ؛ ومن
المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب :

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا . فسيحان
الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟
قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم
معرضون . وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم . ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم
ينشرون من الأرض أى يقيمون الأموات ويعشونهم أحياء . فيه تهكم بتلك الآلهة التى اتخذوها .
فمن أول صفات الإله الحق أن يُنشر الأموات من الأرض . فهل الآلهة التى اتخذوها تفعل
هذا ؟ إنها لا تفعل ، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة . فهى إذن فاقدة للصفة
الأولى من صفات الإله .

ذلك منطق الواقع المشهود فى الأرض . وهنالك الدليل الكونى المستمد من واقع
الوجود : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا .. »

فالكون قائم على الناموس الواحد الذى يربط بين أجزائه جميعا ؛ وينسق بين أجزائه
جميعا ؛ وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم . . هذا الناموس الواحد من
صنع إرادة واحدة لإله واحد . فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات . ولتعددت النواميس تبعا
لها . فالإرادة مظهر الذات المريدة . والناموس مظهر الإرادة النافذة . ولانعدمت الوحدة

التي تنسق الجهاز الكوني كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ؛ ولوقع الاضطراب والفساد تبعاً لفقدان التناسق . . هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محسوس .

وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله ، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ، ووحدة الإرادة التي أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق ، الذي لا فساد في تكوينه ، ولا خلل في سيره :

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

وهم يصفونه بأن له شركاء . تنزه الله المتعالى المسيطر : « رب العرش » والعرش رمز الملك والسيطرة والاستعلاء . تنزه عما يقولون والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم فيما يقولون .

« لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . .

ومتى كان المسيطر على الوجود كله يسأل ؛ ومن ذا الذي يسأله ؛ وهو القاهر فوق عباده ، وإرادته طليقة لا يحدها قيد من إرادة أخرى ، ولا حتى من الناموس الذي ترتضيه هي وتتخذها حاكماً لنظام الوجود . والسؤال والحساب إنما يكونان بناءً على حدود ترسم ومقياس يوضع . والإرادة الطليقة هي التي تضع الحدود والمقاييس ، ولا تتقيد بما تضع للكون من الحدود والمقاييس إلا كما تريد . والخلق مأخوذون بما تضع لهم من تلك الحدود فهم يسألون . وإن الخلق ليستبد بهم الغرور أحياناً فيسألون سؤال المنكر المتعجب : ولماذا صنع الله كذا . وما الحكمة في هذا الصنيع ؟ وكأنما يريدون ليقولوا : إنهم لا يجدون الحكمة في ذلك الصنيع !

وهم يتجاوزون في هذا حدود الأدب الواجب في حق المعبود ، كما يتجاوزون حدود الإدراك الإنساني القاصر الذي لا يعرف العلل والأسباب والغايات وهو محصور في حيزه المحدود . .

إن الذي يعلم كل شيء ، ويدبر كل شيء ، ويسيطر على كل شيء ، هو الذي يقدر ويدبر ويحكم . « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . .

وإلى جانب الدليل الكونى المستمد من طبيعة الوجود وواقعه يسألهم عن الدليل النقلى الذى يستندون إليه فى دعوى الشرك التى لا تعتمد على دليل :

« أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » فهذا هو القرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهناك ذكر من سبقه من الرسل . وليس فيما جاءوا به ذكر الشركاء . فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد . فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التى تنقضها طبيعة الكون ، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل :

« بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » ..

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ..

فالتوحيد هى قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس . لا تبديل فيها ولا تحويل . توحيد الإله وتوحيد المعبود . فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ؛ ولا مجال للشرك فى الألوهية ولا فى العبادة .. قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية ، متصلة بهذه النواميس وهى واحدة منها .

* * *

ثم يعرض السياق لدعوى المشركين من العرب أن لله ولدا . وهى إحدى مقولات الجاهلية السخيفة :

« وقالوا : اتخذ الرحمان ولدا . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . ! يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم : إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزي الظالمين » ..

ودعوى بنوة لله - سبحانه - دعوى اتخذت لها عدة صور فى الجاهليات المختلفة . فقد عرفت عند مشركى العرب فى صورة بنوة الملائكة لله . وعند مشركى اليهود فى صورة بنوة العزيز لله . وعند مشركى النصارى فى صورة بنوة المسيح لله . . وكلها من انحرافات الجاهلية فى شتى الصور والعصور .

والمفهوم أن الذى يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب فى بنوة الملائكة . وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة . فهم ليسوا بنات لله — كما يزعمون — « بل هم عباد مكرمون » عند الله . لا يقترحون عليه شيئا تأدبا وطاعة وإجلالا . إنما يعملون بأمره لا يناقشون . وعلم الله بهم محيط . ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضى أن يقبل الشفاعة فيه . وهم بطبيعتهم خائفون لله مشفقون من خشيته — على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التى لا استثناء فيها ولا انحراف عنها . وهم لا يدعون الألوهية قطعا . ولو ادعوها — جدلا — لكان جزاؤهم جزاء من يدعى الألوهية كائنا من كان ، وهو جهنم . فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق ، ولكل أحد ، ولكل شيء فى هذا الوجود .

وكذلك تبدو دعوى المشركين فى صورتها هذه واهية مستنكرة مستبعدة ، لا يدعيها أحد . ولو ادعاها لذاق جزاءها الأليم !

وكذلك يلمس الوجدان بمشهد الملائكة طائعين لله ، مشفقين من خشيته . بينما المشركون يتناولون ويدعون !

* * *

وعند هذا الحد من عرض الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة ؛ والأدلة النقلية النافية للتعدد ؛ والأدلة الوجدانية التى تلمس القلوب . . . يجول السياق بالقلب البشرى فى مجال الكون الضخمة ، ويد القدرة تدبره بحكمة ، وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شيء حي ؛ أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل فى فلك يسبحون » . . .

إنها جولة فى الكون المعروض للأنظار ، والقلوب غافلة عن آياته الكبار ، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعى والحس اليقظ .

وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنا ، مسألة جدية بالتأمل ، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية ، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردتها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مئة وألف عام .

فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية - كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر . . كانت سديما . ثم انفصلت وأخذت أشكالها السكرية . وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت . .

ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية . تقوم اليوم وقد تنقض غدا . وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية . .

ونحن - أصحاب هذه العقيدة - لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة ، تقبل اليوم وترفض غدا . لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية . وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا وتجمده بالبرودة . . . إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية . وهي شيء آخر غير النظريات العلمية - كما بينا من قبل في الظلال -

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجيء ليكون علما تجريبيا كذلك . إنما هو منهج للحياة كلها . منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده . ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق . دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات . علمية بحتة . فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه .

وقد يشير القرآن أحيانا إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا : « أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن . وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتح السماوات والأرض . أو فتح السماوات عن الأرض . ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن . ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية ، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر . وهو حقيقة مستيقنة ! وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال !

فأما شطر الآية الثانى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فيقرر كذلك حقيقة خطيرة .
يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما . ويمجدون « دارون » لاهتدائه إليها ! وتقريره أن
الماء هو مهد الحياة الأول .

وهى حقيقة تثير الانتباه حقا . وإن كان ورودها فى القرآن الكريم لا يشير العجب فى
نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن . فنحن نستمع الاعتقاد بصدقه المطلق فى كل
ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله . لا من موافقة النظريات أو الكشف العلمية له . وأقصى
ما يقال هنا كذلك : إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآنى
فى هذه النقطة بالذات .

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب
صنع الله فى الكون ، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة فى الوجود : « أفلا
يؤمنون ؟ » وكل ما حولهم فى الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم ؟

ثم يمضى فى عرض مشاهد الكون الهائلة :

« وجعلنا فى الأرض رواسى أن يمتد بهم » . .

فيقرر أن هذه الجبال الرواسى تحفظ توازن الأرض فلا تتمد بهم ولا تضطرب . وحفظ
التوازن يتحقق فى صور شتى . فقد يكون توازنا بين الضغط الخارجى على الأرض والضغط
الداخلى فى جوفها ، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة : وقد يكون بروز الجبال فى موضع معادلا
لانخفاض الأرض فى موضع آخر . . وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن
الأرض واستقرارها . فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التى يتم بها هذا التوازن فذلك
مجالها الأصيل . ولنسكتف من النص القرآنى الصادق بالمسة الوجدانية والتأمل الموحى ،
وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير :

« وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلمهم يهتدون » . .

وذكر الفجاج فى الجبال . وهى الفجوات بين حواجزها العالية ، وتتخذ سبلا وطرقا . .
ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء بصور الحقيقة الواقعة أولا ، ثم يشير من طرف

خفى إلى شأن آخر في عالم العقيدة . فلعلمهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان ، كما يهتدون في فجاج الجبال !

« وجعلنا السماء سقفا محفوظا » . .

والسما كل ما علا . ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف . والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ . محفوظ من الحلل بالنظام الكونى الدقيق . ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزاً للعلو الذى تنزل منه آيات الله . . « وهم عن آياتنا معرضون » . .

« وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر . كل فى فلك يسبحون » . .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض . وبالحياة كلها . والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر . بهذه الدقة التى لا تختل مرة ؛ وبهذا الاطراد الذى لا يكف لحظة . . جدير بأن يهذى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير .

* * *

وفى نهاية الشوط يربط السياق بين نواميس الكون فى خلقه وتكوينه وتصريفه ؛ ونواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها :

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . أفإن مت فهم الخالدون ؟ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . .

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد . فكل حادث فهو فان . وكل ما له بدء فله نهاية . وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل أهل الموتى ؟ وما لهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟

« كل نفس ذائقة الموت » . . هذا هو الناموس الذى يحكم الحياة . وهذه هى السنة التى ليس لها استثناء . فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق !

إنه الموت نهاية كل حى ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض . وإلى الله يرجع الجميع . فأما ما يصيب الإنسان فى أثناء الرحلة من خير وشر فهو فتنة له وابتلاء :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ..

والابتلاء بالشر مفهوم أمره . ليتكشف مدى احتمال المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته في ربه ، ورجائه في رحمته .. فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان ..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر ..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائلة في كيانهم الجامحة في أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تنهاوى نفوسهم ولا تذلل . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان . وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالרגائب والمناصب والمتاع والثراء !

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ؛ ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح . ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال . وبلاسترخاء الذي يقعد الهمم ويذل الأرواح !

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة !

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء ! وذلك شأن البشر . . إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله - صلى عليه وسلم - :

« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له^(١) » .. وهم قليل !

(١) رواه مسلم بسنده ، في كتاب الزهد والرقائق .

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر . والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان ...

« وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ يَذَّكَّرُ إِلَيْهِمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا . أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ »

« خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ . سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ * وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . »

« وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . »

« قُلْ مَنْ يَكْلَأُ كُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ؟ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؛ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ »

« قُلْ : إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ، وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَٰئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يَا وَيْلَتَنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . »

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ . »

بعد ذلك الشوط البعيد المديد في أرجاء الكون ، وفي نواميس الوجود ، وفي سنن الدعوات ، وفي مصائر البشر ، وفي مصارع الغابرين . . يرتد السياق إلى مثل مابدأ به في مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وما معه من الوحي ؛ واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك ..

ثم يتحدث عن طبيعة الإنسان العجول ، واستعجالهم بالعذاب . فيحذرهم ما يستعجلون به . وينذرهم عاقبة الاستهزاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ويعرض لهم مشهدا من تقلص ظلال الغالبيين المسيطرين في الدنيا . ومشهدا من عذاب المكذبين في الآخرة .

ويختتم الشوط بدقة الحساب والجزاء في يوم القيامة . فيربط الحساب والجزاء بنواميس الكون وفطرة الإنسان وسنة الله في حياة البشر وفي الدعوات . .

« وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذي يذكر آلهتكم ؛ وهم يذكرون » .

إن هؤلاء الكفار يكفرون بالرحمان ، خالق الكون ومدبره ، ليستنكرون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء ، بينما هم يكفرون بالرحمان دون أن يتخرجوا أو يتلوموا . . وهو أمر عجيب جد عجيب !

وإنهم ليلقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالهزاء ، يستكثرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك : « أهذا الذي يذكر آلهتكم ؟ » ولا يستكثرون على أنفسهم - وهم عبيد من عبيد الله - أن يكفروا به ، ويعرضوا عما أنزل لهم من قرآن . . وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور !

ثم هم يستعجلون بما ينذرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عذاب ؛ ويحذرهم من عاقبته . والإنسان بطبعه عجول :

« خلق الإنسان من عجل . سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ! » ..

« خلق الإنسان من عجل » .. فالعجلة في طبعه وتكوينه . وهو يمد ببصره دائماً إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله ، ويريد أن يستحضر كل ما يوعده به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه . . ذلك إلا أن يتصل بالله فيثبت ويطمئن ، ويكل الأمر لله فلا يتعجل قضاءه . والإيمان ثقة وصبر واطمئنان .

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب ، ويسألون متى هذا الوعد . الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا . . فهاهو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ، ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من عذاب الدنيا :

« لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهمهم ، فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون . . ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

لو يعلمون ماسيكون لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم . . فلينظروا ماذا سيكون ..

هاهم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون في حركة مخيلة - يرسمها التعبير من وراء السطور - أن يكفوا النار عن وجوههم وعن ظهورهم ، ولكنهم لا يستطيعون . وكأئما تلقفهم النار من كل جانب ، فلا هم يستطيعون ردها ، ولا هم يؤخرون عنها ، ولا هم يمهلون إلى أجل قريب .

وهذه المباغة جزاء الاستعجال . فلقد كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فكان الرد هو هذه البغلة التي تذهل العقول ، وتشل الإرادة ، وتعجزهم عن التفكير والعمل ، وتحرمهم مهلة الإنظار والتأجيل .

ذلك عذاب الآخرة . فأما عذاب الدنيا فقد حل بالمستهزئين قبلهم . فإذا كانوا هم لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال ، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع . وليحذروا الاستهزاء برسولهم . وإلا فمصير المستهزئين بالرسول معروف ، جرت به السنة التي لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين .

أم إن لهم من يرعاهم بالليل والنهار غير الرحمان ، ويمنعهم من العذاب في الدنيا أو الآخرة من دون الله ؟

« قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمان ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصحبون » .

إن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار . وصفته هي الرحمة الكبرى ، وليس من دونه راع ولا حام . فاسألهم : هل لهم حارس سواء ؟

وهو سؤال للإنكار ، وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله ، وهو الذي يكلؤهم بالليل والنهار ، ولا راعى لهم سواء : « بل هم عن ذكر ربهم معرضون » .

ثم يعيد عليهم السؤال في صورة أخرى : « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ؟ » فتكون هي التي تحرسهم إذن وتحفظهم ؟ كلا فهؤلاء الآلهة « لا يستطيعون نصر أنفسهم » فهم من باب أولى لا يستطيعون نصر سواهم . « ولا هم منا يصحبون » فيستمدوا القوة من صحبة القدرة لهم — كما استمدها هارون وموسى وربهما يقول لهما : « إننى معكما أسمع وأرى » . .

إن هذه الآلهة مجردة من القوة بذاتها ؛ وليس لها مدد من الله تستمد منه القوة . فهي عاجزة عاجزة .

وبعد هذا الجدل التهمى الذى يكشف عن سخف ما يعتقد المشركون وخوائه من المنطق والدليل .. يضرب السياق عن مجادلتهم ؛ ويكشف عن علة لجأهم ؛ ثم يلمس وجدانهم لمسة تهز القلوب ، وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة ، وهى تطوى رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين ، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيز منها منزو صغير ، بعد السعة والمنعة والسلطان !

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر . أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ أفهم الغالبون ؟ » ...

فهو المتاع الطويل الموروث الذى أفسد فطرتهم . والمتاع ترف . والترف يفسد القلب ويولد الحس . وينتهى إلى ضعف الحساسية بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته . وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ، ويصلها دائماً بالله ، فلا تنساه .

ومن ثم يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذى يقع كل يوم فى جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقلص . فإذا هى دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات . وإذا هى مغلوبة على أمرها وكانت غالبة . وإذا هى قليلة العدد وكانت كثيرة . قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات . . .

والتعبير يرسم يد القدرة وهى تطوى الرقعة وتنقص الأطراف وتزوى الأبعاد . . . فإذا هو مشهد ساحر فيه الحركة اللطيفة ، وفيه الرهبة المخيفة !
« أفهم الغالبون » ؟ فلا يجرى عليهم ما يجرى على الآخرين ؟

* * *

وفى ظل هذا المشهد الذى ترتعش له القلوب يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى كلمة الإنذار :

« قل : إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون » . .

فليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون ! فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم ، وتنقص يد القدرة أطرافهم ، وتتحيفهم وما هم فيه من متاع !

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر فى القلوب ، فيصورهم لأنفسهم حين يمسمهم العذاب :

« ولئن مستهم نفحة من عذاب الله ليقولن : يا ويلنا إنا كنا ظالمين » .

والنفحة تطلق غالبا فى الرحمة . ولكنها هنا تطلق فى العذاب . كأنما يقال : إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم بجأرون بالاعتراف . ولكن حيث لا يجدى الاعتراف . فلقد سبق فى سياق السورة مشهد القرى التى أخذها بأس الله ، فنادى أهلها : « يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت لك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

وإذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان . ولخير منه أن يسمعوا نذير الوحي وفى الوقت متسع ، قبل أن تمسمهم نفحة من العذاب !

* * *

ويختم الشوط بالإيقاع الأخير من مشاهد يوم الحساب :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين » . .

والحبة من خردل تصور أصغر ماتراه العيون وأخفه في الميزان ، وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع . والميزان الدقيق يشيل بها أو يعيل !

فلتنظر نفس ما قدمت لغد . وليصغ قلب إلى النذير . وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة . فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه ، فلا تظلم نفس شيئا ، ولا يهمل مثقال حبة من خردل .

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة ، بنواميس الكون الدقيقة ، بسنن الدعوات ، وطبائع الحياة والناس . وتلتقى كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد وهي محور السورة الأصيل .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ، وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ، وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ؟ »

« وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ * قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا : أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ؟ * قَالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . »
« فَجَعَلَهُمْ جُذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . »

« قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ؟ * قَالُوا : فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .

« قَالُوا : أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ * قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * قَالُوا : حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ .

« وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

« وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

« وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ

مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ؟ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى
الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ
لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أُنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرًا
لِلْعَابِدِينَ .

« وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ،
إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ . وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ .

« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا
لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ،
وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ .

« وَالَّتِي أَحْصَيْنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِلْعَالَمِينَ .

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » . .

هذا الشوط الثالث يستعرض أمة الرسل . لا على وجه الحصر . يشير إلى بعضهم مجرد
إشارة ؛ ويفصل ذكر بعضهم تفصيلا مطولا ومختصرا .

وتتجلى في هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله ، وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات . كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضرر ، وكيف اجتازوا الابتلاء .

كذلك تتجلى سنة الله في إرسال الرسل من البشر . ووحدة العقيدة والطريق ، لجماعة الرسل على مدار الزمان ؛ حتى لسكانهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان .

وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذى يربط سنن الله فى الكون ، ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعا وجهة واحدة ، إلى معبود واحد : « وأنا ربكم فاعبدون » ..

* * *

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكر للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ؟ » .

ولقد سبق فى سياق السورة أن الشركين كانوا يستهزئون بالرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر . وأنهم كانوا يكذبون بالوحي ، ويقولون : إنه سحر أو شعر أو افتراء .

فهاهو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هى السنة المطردة ، وهذه نماذج لها من قبل . وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة فهاهما دان موسى وهارون آتاها الله كتابا .

ويسمى هذا الكتاب « الفرقان » وهى صفة القرآن . فهناك وحدة حتى فى الاسم . ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين منهج فى الحياة ومنهج ، واتجاه فى الحياة واتجاه . فهى فى عمومها فرقان . وفى هذه الصفة تلتقى التوراة والقرآن .

وجعل التوراة كذلك . « ضياء » يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل . وهى ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير . وإن القلب البشرى ليظل مظلما حتى تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتنير جوانبه ، ويتكشف له منهجه ، ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعانى والتقدير .

وجعل التوراة كالقرآن « ذكرًا للمتقين » تذكرهم بالله ، وتبقى لهم ذكرًا في الناس . وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ويستذلهم بالسخرة والإيذاء .

ويخص المتقين « الذين يخشون ربهم بالغيب » لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه ، « والذين هم من الساعة مشفقون » فيعملون لها ويستعدون . . هؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسرون على هداية ، فيكون كتاب الله لهم ذكرًا ، يذكرهم بالله ، ويرفع لهم ذكرًا في الناس .

ذلك شأن موسى وهارون . . « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » فليس بدعا ولا عجبا ، إنما هو أمر مسبق وسنة معروفة « أفأنتم له منكرون ؟ » فماذا تنكرون منه ، وقد سبقته به الرسالات ؟

* * *

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وهو جد العرب الأكبر وباني الكعبة التي يحشدون فيها الأصنام ، ويعكفون عليها بالعبادة ، وهو الذي حطم الأصنام من قبل . والسياق يعرضه هنا وهو يستنكر الشرك ويحطم الأصنام .

والحلقة المعروفة هنا هي حلقة الرسالة . وهي مقسمة إلى مشاهد متتابعة ، بينها فجوات صغيرة . وهي تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد . ويعني به الهداية إلى التوحيد . فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة « الرشد » في هذا المقام .

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين » . .

آتينا رشده ، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التي يحملها المرسلون .

« إذ قال لأبيه وقومه : ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ » . .

فكانت قوله هذه دليل رشده . . سمى تلك الأحجار والخشب باسمها : « هذه التماثيل »

ولم يقل : إنها آلهة ، واستنكر أن يكفوا عليها بالعبادة . وكلمة « عاكفون » تفيد الانكباب

الدائم المستمر . وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها . ولكنهم يتعلقون بها . فهو عكوف معنوي لا زمني . وهو يسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبدا على هذه التماثيل !

فكان جوابهم وحجتهم أن

« قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » !

وهو جواب يدل على النحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية . فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل :

« قال : لقد كنتم أتم وآباؤكم في ضلال مبين » ..

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها . فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم ، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق . وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير ، وبهذه الصراحة في الحكم ، راحوا يسألون :

« قالوا : أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ » ..

وهو سؤال المزعزع العقيدة ، الذي لا يطعن إلى ماهو عليه ، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه . ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد . فهو لا يدري أى الأقوال حق . والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل ! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير .

فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له في خاطره وفكره ، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

« قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

فهو رب واحد . رب الناس ورب السماوات والأرض . ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق .

فهما صفتان لا تنفكان : « بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن » .. فهذه هي

العقيدة المستقيمة الناصعة ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب ، في الوقت الذي يقرون أنها لا تخلق ، وأن الخالق هو الله . ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون ! إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه : « وأنا على ذلكم من الشاهدين » . . وإبراهيم - عليه السلام - لم يشهد خالق السماوات والأرض ، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه . . ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين . . إن كل مافى السكون لينطق بوحدة الخالق المدبر . وإن كل مافى كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحداية الخالق المدبر ، وبوحدة الناموس الذي يدبر السكون ويصرفه .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار . أنه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه :

« وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » . .

ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهما لا يفصح عنه . . ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه . ولعلمهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيذا . فتركوه !

« فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلمهم إليه يرجعون » . .

وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة . . إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم « لعلمهم إليه يرجعون » فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ! ولعلمهم حينئذ يراجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه مافى عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذا إلا ذلك الكبير ! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها : إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً . وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ، لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير ، ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع :

« قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » . .

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ،
ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها !
« قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . .

ويبدو من هذا أن إبراهيم - عليه السلام - كان شابا صغير السن ، حينما آتاه الله رشده ،
فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم . ولكن أكان قد أوحى إليه بالرسالة في
ذلك الحين ؟ أم هو إلهام هداة إلى الحق قبل الرسالة . فدعا إليه أباه ، واستنكر على قومه
ماهم فيه ؟

هذا هو الأرجح . .

وهناك احتمال أن يكون قولهم : « سمعنا فتى » يقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم
لأمره في قولهم : « يقال له إبراهيم ! » للتقليل من أهميته ، وإفادة أنه مجهول لا خطر له ؟ قد
يكون . ولكننا نرجح أنه كان فتى حديث السن في ذلك الحين .

« قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون » . .

وقد قصدوا إلى التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد :

« قالوا : أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ »

فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهي جسدناذ مهشمة . فأما إبراهيم فهو يتهمهم
ويسخر منهم ، وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك
إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون :

« قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر . فلا داعى لتسمية هذه كذبة من إبراهيم - عليه
السلام - والبحث عن تعليلها بشق العلل التي اختلف عليها المفسرون . فالأمر أيسر من هذا
بكثير ! إنما أراد أن يقول لهم : إن هذه التماثيل لا تدرى من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم
الكبير الذي لا يملك مثلها حراكا . فهي جماد لا إدراك له أصلا . وأنتم كذلك مثلها مسلوبو
الإدراك لا تميزون بين الجائر والمستحيل . فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها أم إن هذا
التمثال هو الذي حطمها ! « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » !

ويبدو أن هذا التهم الساخر قد هزم هذا ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكير :
« فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون » ..

وكانت بادرة خير أن يستشعروا مافي موقفهم من سخف ، ومافي عبادتهم لهذه التماثيل
من ظلم . وأن تفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم ،
وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون .

ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم
إلى الخمود :

« ثم نكسوا على رؤوسهم . لقد علمت ماهؤلاء ينطقون !

وحقا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس ؛ كما يقول
التعبير القرآني المصور العجيب . . كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر . أما الثانية
فكانت انقلابا على الرأس فلا عقل ولا تفكير . وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم .
وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف وضيق على غير عادته وهو الصبور الحليم . لأن السخف هنا يجاوز
صبر الحليم :

« قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من
دون الله أفلا تعقلون ؟ ! »

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذي يتجاوز
كل مألوف .

عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ،
فيلجأون إلى القوة العاشمة والعذاب الغليظ :

« قالو : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » ..

فيالها من آلهة ينصرها عبادها ، وهي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؛ ولا تحاول لها
ولا لعبادها نصراً !

« قالوا: حرقوه » ولكن كلمة أخرى قد قلت .. فأبطلت كل قول ، وأحببت كل كيد .
ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد :

« قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم .. »

فكانت بردا وسلاما على ابراهيم ..

كيف ؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها . و « كوني » هذه هي الكلمة التي تكون بها أ كوان ،
وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون »
فلا نسأل : كيف لم تحرق النار ابراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام
الحية ؟ فالذي قال للنار : كوني حارقة . هو الذي قال لها : كوني بردا وسلاما . وهي الكلمة
الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوقا للبشر أو غير مألوف .
إن الذين يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون : كيف كان
هذا ؟ وكيف أمكن أن يكون ؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين ، واختلاف الأدوات ،
فإنهم لا يسألون أصلا ، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلا . علميا أو غير علمي . فالمسألة ليست في
هذا الميدان أصلا . ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر . وكل
منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من
أساسه ، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود .

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان ، لأن صانعه يملك أن يكون . أما كيف صنع
بالنار فإذا هي برد وسلام ؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار . . فذلك ماسكت عنه
النص القرآني لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود . وليس لنا سوى النص القرآني
من دليل .

وما كان تحويل النار بردا وسلاما على إبراهيم إلا مثلاً تقع نظائره في صور شتى . ولكنها
قد لا تهز الشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر . فكم من ضيقات وكربات تحيط
بالأشخاص والجماعات من شأنها أن يكون القاصمة القاضية ، وإن هي إلا لفظة صغيرة ، فإذا
هي تحي ولا تميت ، وتنش ولا تحمد ، وتعود بالخير وهي الشر المستطير .

إن « يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم » لتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم ؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات . وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد !

« وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » ..

وقد روى أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب « بالنمروذ » وهو ملك الآراميين بالعراق . وأنه قد أهلك هو والملا من قومه بعذاب من عند الله . تختلف الرويات في تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة « فجعلناهم الأخسرين » هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد !

« ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين » ..

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحي فترة طويلة ، ومبعث الرسل من نسل إبراهيم . وفيها الأرض المقدسة . وثاني الحرمين . وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلا بعد جيل .

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » ..

لقد ترك إبراهيم - عليه السلام - وطنه وأهلا وقوما . فعوضه الله الأرض المباركة ووطنا خيرا من وطنه . وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله . وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيرا من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ؛ وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . وكانوا طائعين لله عابدين .. فعمم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللاتفة بصبره الجميل .

« ولوطا آتيناه حكما وعلما ؛ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الفجائث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين » ..

وقصة لوط قد سبقت مفصلة . وهو يشير إليها هنا مجرد إشارة . وقد صحب عمه إبراهيم

من العراق إلى الشام ، وأقام في قرية سدوم . وكانت تعمل الحباث . وهى إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء أو تخرج . فأهلك الله القرية وأهلها : « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » . وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته . « وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » وكاننا الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

* * *

ويشير إلى نوح إشارة سريعة كذلك :

« ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » . وهى إشارة كذلك لا تفصيل فيها . لإثبات استجابة الله لنوح - عليه السلام - حين ناداه « من قبل » وهو سابق لإبراهيم ولوط . ولقد أنجاه الله وأهله كذلك . إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو « الكرب العظيم » الذى وصفه بالتفصيل فى سورة هود .

* * *

ثم يفصل بعض الشئ فى حلقة من قصة داود وسليمان :

« وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ؛ وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلما صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شئ عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين » وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة فى تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أى حقل وقيل حديقة كرم - والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى - أى انطلقت فيه ليلا - فلم تبق منه شيئا . فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل حرثه ومر صاحب الغنم بسليمان ؛ فأخبره

بقضاء داود . فدخل سليمان على أبيه فقال : يا بني الله إن القضاء غير ماقضيت . فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ماتحت يده . فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه . . فقال داود : القضاء ما قضيت . وأمضى حكم سليمان .

وكان حكم دواود وحكم سليمان في القضية اجتهدا منها . وكان الله حاضرا حكمهما ، فألهم سليمان حكما أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب .

لقد أتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير . وهذا هو العدل الحى الإيجابى في صورته البانية الدافعة . وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء . ولقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم : « وكلا آتينا حكما وعلما » . . وليس في قضاء داود من خطأ ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب ، لأنه من نبع الإلهام .

ثم يعرض السياق ما اختص به كلا منهما . فيبدأ بالوالد :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلماؤه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ »

وقد عرف دواود - عليه السلام - بمزاميره . وهى تساييح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتجاوب أصدائها حوله ، وترجع معه الجبال والطير . .

وحينا يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ؛ وينبض قلب الوجود معه ؛ وتنزاح العوائق رالحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التى تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرهما وحقائقهما في ضمير الكون وحقيقته .

وفي لحظات الإشراف تحس الروح بأنهما جها في الكل ، واحتوائها على الكل . . عندئذ لا تحس بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها ؛ ولا بأنها هى متميزة عما حولها . فكل ما حولها مندمج فيها وهى مندمجة فيه .

ومن النص القرآنى نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة

المتحيزة . وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء .
فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه . وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة
بجلال الله وحمده . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . .
إنما يفقه من يتجرد من الحواجز والفواصل ، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها
إلى الله .

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير » . . « وكنا فاعلين » فما هنالك من شيء
يعز على القدرة أو يتأني حين تريد . يستوى أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف .
« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ » .

تلك هي صنعة الدروع حلقة متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة . والزرد
المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من
الدروع بتعليم الله . والله يمين على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب :
« لتحصنكم من بأسكم » وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض : « فهل أنتم شاكرون ؟ » . .
والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجيء طفرة ، لأن خلافة
الأرض تركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة ؛ ويعيد
تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على
النفس البشرية ؛ فهي تهز أعماقها ؛ وتغير عاداتها ومألوفها ؛ وتقتضى فترة من الزمان لإعادة
الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك
فترة استقرار تطول أو تقصر . بعد كل تنسيق جديد .

والقلق الذي يستولى على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية
والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار ، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق
للوضع الجديد .

ذلك شأن دواود . فأما شأن سليمان فهو أعظم :
« وسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ؛ وكنا بكل شيء

عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وكنا لهم حافظين » ..
وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقوال ، معظمها مستمد من الاسرائليات
والتخيلات والأوهام . ولكن لا نضل في هذا التيه . فإننا نقف عند حدود النصوص
القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات .

والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح - وهي عاصفة - لسليمان ، تجري بأمره إلى
الأرض التي باركنا فيها . وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة
ابراهيم .. فكيف كان هذا التسخير ؟

هنالك قصة بساط الريح الذي قيل : إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير بهم
إلى الشام في فترة وجيزة . وهي مسافة كانت تقطع في شهر على الجمال . ثم يعود كذلك ..
وتستند هذه الرواية إلى ماورد في سورة « سبأ » من قوله : « ولسليمان الريح غدوها
شهر ورواحها شهر » ..

ولكن القرآن لم يذكر شيئا عن بساط الريح ذاك ؛ ولم يرد ذكره كذلك في أى أثر
مستيقن . فليس لنا مانستند عليه لنقرر مسألة البساط .

والأسلم إذن أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها - بأمر الله - إلى الأرض المباركة في دورة
تستغرق شهرا طردا وعكسا .. كيف ؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟
فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس
الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها
عندما يؤذن لها بالظهور : « وكنا بكل شيء عالمين » .. العلم المطلق لا يعلم البشر المحدود .

وكذلك تسخير الجن لسليمان - عليه السلام - ليغوصوا في أعماق البحر وأعماق اليابسة .
ويستخرجوا كنوزها الخبوءة لسليمان ؛ أو ليعملوا له أعمالا غير هذا وذاك .. فالجن كل
ماخفي . وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقا يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء
سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وحفظهم فلا يهربون ولا
يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء
كيف يشاء .

وعند هذا الحد المأمون تقف في ظلال النصوص . فلا نسبح في الإسرائيليات .

* * *

لقد ابتلى الله داود وسليمان — عليهما السلام — بالسراء . وفتنتهما في هذه النعمة . فتن داود في القضاء . وفتن سليمان بالحيل الصافيات — كما سيأتى في سورة ص — فلا تتعرض هنا لتفصيلات الفتنة حتى يأتى ذكرها في موضعها . إنما نخلص إلى نتائجها . لقد صبر داود ، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة — بعد الاستغفار من الفتنة — واجتازا الامتحان في النهاية بسلام ؛ فكانا شاكرين لنعمة الله .

* * *

والآن نجىء إلى الابتلاء بالضرء في قصة أيوب عليه السلام :

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء . والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل . وهى في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء . لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم في الابتلاء . سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم ، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح . أو بالنعمة في قصة داود وسليمان . أو بالضر كما في حال أيوب . . .

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله : « أنى مسنى الضر » . ووصف ربه بصفته : « وأنت أرحم الراحمين » . ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبرا على بلائه ، ولا يقترح شيئا على ربه ، تأدبا معه وتوقيرا . فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتعامل من الضر الذى تضرب به الأمثال في جميع الأعصار^(١) . بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

(١) تكثر الأقوال وتباغ الروايات في الضر الذى مس أيوب . حتى تقول : إنه مرض مرضا منفرا تحاشاه الناس بسببه وطرحوه خارج المدينة . . وليس وراء هذا القول من سند . والرسالة تتناهى مع المرض المنفر . والظاهر من نصوص القرآن أنه أصيب بالضر في أهله ونفسه . . وفى هذا كفاية للابتلاء .

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة ، وكانت نهاية الابتلاء : « فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم » . .

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافي صحيح . ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم ، ورزقه مثلهم . وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثلهم . أو أنه وهب له أبناء وأحفاد . « رحمة من عندنا » فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة . « وذكرى للعابدين » . تذكرهم بالله وبلائه ، ورحمته في البلاء وبعد البلاء . وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها ؛ وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها . وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

والإشارة « للعابدين » بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها . فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء . وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان . والأمر جد لا لعب . والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها بالشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء ..

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل . كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين » . .

فهو عنصر الصبر كذلك يشير إليه في قصص هؤلاء الرسل .

فأما إسماعيل فقد صبر على ابتلاء ربه له بالدبح فاستسلم لله وقال : « ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

وأما إدريس فقد سبق إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وإن هنالك قولاً بأنه ، ثوزوريس الذي عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير . بوصف المعلم الأول

للشعر ، الذى علمهم الزراعة والصناعة ! ولكننا لا نملك على هذا دليلا . فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذى يستحق التسجيل فى كتاب الله الباقى .

وأما ذو الكفل فهو كذلك مجهول لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه . والأرجح أنه من أنبياء بنى إسرائيل . وقيل : إنه من صالحهم ، وأنه تكفل لأحد أنبيائهم قبل موت هذا النبى . بأن يخلفه فى بنى إسرائيل على أن يتكفل بثلاث : أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب فى القضاء . فوفى بما تكفل به وسمى ذا الكفل لذلك . ولكن هذه ليست سوى أقوال لا دليل عليها . والنص القرآنى يكفى فى هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لذى الكفل .

« وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » .. وهذا هو المقصود بذكرهم فى هذا السياق .

ثم تبحىء قصة يونس - عليه السلام - وهو ذو النون .

« وذا النون إذ ذهب مغاضبا . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجيبنا له ونجينااه من الغم . وكذلك تنجى المؤمنين » ..

وقصة يونس تأتى هنا فى صورة إشارة سريعة مراعاة للتناسق فى السياق ، وتفصل فى سورة الصافات . ولكن لا بد لنا من بعض التفصيل هنا لهذه الإشارة كي تكون مفهومة .

لقد سمي ذا النون - أى صاحب الحوت - لأن الحوت التقمه ثم نبذه . وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدرا ، وغادرهم مغاضبا ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم . ظانا أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهى فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون . وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة ، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين .

ذلك معنى « فظن أن لن نقدر عليه » أى أن لن تضيق عليه .

وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الحائق ، إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها . حتى إذا كانت فى اللجة ثقلت ، وقال ربانها : إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها فى

البحر لينجوساً من فيها من الغرق . فسأهموا فجاء السهم على يونس ، فألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت . مضيقاً عليه أشد الضيق ! فلما كان في الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل نادى : « أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » . فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه من الغم الذي هو فيه . ولفظه الحوت على الساحل . ثم كان من أمره ما يفصله في سورة الصافات . فحسبنا هذا في هذا السياق .

إن في هذه الحلقة من قصة يونس - عليه السلام - لفتات ولمسات تقف أمامها لحظات .

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضايق صدرا بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ؛ فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذابين . ولولا أن ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعاينه .

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مريد على النفس حقاً . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويشبثوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا .

إنهم لا يجوز لهم أن يئسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فإذا كانت المرة المئة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المئة : وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب !

إن طريق الدعوات ليس هيناً لنا . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة . فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركام . ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من لمس جميع المراكز الحساسة . ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . وإحدى اللمسات متصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمة موضعها . وإن الإنسان ليدعش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة

عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشرى فينتفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيانا من قبل على كل الجهود ! .

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال . . إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطيء المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم إذا حركة عابرة من يدك . فتتصل الموجة وتنطلق الأصدا والأنغام !

إن القلب البشرى هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال . وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال !

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . إنه عمل مريح ، قد يفتأ الغضب ، ويهدى الأعصاب . . ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذى عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ !

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون !

إن الداعية أداة في يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الله . والهدى هدى الله .

وإن في قصة ذى النون لدرسا لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتأملوه .

وإن في رجعة ذى النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغى أن يتدبروها .

وإن في رحمة الله لذى النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين : « وكذلك تنجى المؤمنين » . .



ثم إشارة إلى قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - واستجابة الله لزكريا عند ما دعاه : « وزكريا إذ نادى ربه . رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا

له يحيى ، وأصلحنا له زوجه . إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين .

وقصة مولد يحيى سبقت مفصلة فى سورة مريم وفى سورة آل عمران . وهى ترد هنا متناسقة مع السياق . فتبدأ بدعاء زكريا : « رب لا تذرنى فردا » بلا عقب يقوم على الهيكل : وكان زكريا قائما على هيكل العبادة فى بنى اسرائيل قبل مولد عيسى - عليه السلام - ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال : « وأنت خير الوارثين » إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده فى أهله ودينه وماله . لأن الخلق ستار القدرة فى الأرض .

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة : « فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه » وكانت عقبا لا تصلح للنسل . . ويختصر السياق تفاصيل هذا كله ليصل مباشرة إلى استجابة الله للدعاء .

« إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات » . . فسارع الله فى استجابة الدعاء .

« ويدعوننا رغبا ورهبا » . . رغبة فى الرضوان ورهبة للغضب . فقلوبهم وثيقة الصلة دأمة التطلع .

« وكانوا لنا خاشعين » . . لا متكبرين ولا متجبرين . .

بهذه الصفات فى زكريا وزوجه وابنهما يحيى استحق الوالدان أن ينعم عليها بالابن الصالح . فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه .

* * *

أخيراً يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عليه السلام :

« والتى أحصنت فرجها ، فنفضنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » . .

ولا يذكر هنا اسم مريم ، لأن المقصود فى سلسلة الأنبياء هو ابنها - عليه السلام - وقد جاءت هى تبعاً له فى السياق . إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها : « والتى أحصنت فرجها » . أحصنته فصانته من كل مباشرة . والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ، لأن الزواج يحصن من الوقوع فى الفاحشة . أما هنا فيذكر فى معناه الأصيل ، وهو الحفظ والصون أصلاً من كل

مباشرة شرعية أو غير شرعية . وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذى كان معها فى خدمة الهيكل . والذى تقول عنه الأناجيل المتداولة ، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

لقد أحصنت فرجها « فنفخنا فيها من روحنا » والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما فى سورة التحريم - وقد سبق الحديث عن هذا الأمر فى تفسير سورة مريم - ومحافضة على أن نعيش فى ظلال النص الذى بين أيدينا فإننا لا تفصل ولا نطوّل ، فنمضى مع النص إلى غايته :
« وجعلناها وابنها آية للعالمين » . .

وهى آية غير مسبوقة ولا ملحوقة . آية فذة واحدة فى تاريخ البشرية جميعا . ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفى لتأمله البشرية فى أجيالها جميعا ؛ وتذكر يد القدرة الطليقة التى تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس .

* * *

وفى نهاية الاستعراض الذى شمل نماذج من الرسل ، ونماذج من الابتلاء ، ونماذج من رحمة الله - يعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض :

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » . .

إن هذه أمتكم . أمة الأنبياء . أمة واحدة . تدين بعقيدة واحدة . وتخرج نهجا واحدا . هو الاتجاه إلى الله دون سواه .

أمة واحدة فى الأرض ، ورب واحد فى السماء . لا إله غيره ولا معبود إلا إياه .

أمة واحدة وفق سنة واحدة ، تشهد بالإرادة الواحدة فى الأرض والسماء .

وهنا يلتقى هذا الاستعراض بالمحور الذى تدور عليه السورة كلها ؛ وتشترك فى تقرير

عقيدة التوحيد ، تشهد بها مع سنن الكون وناموس الوجود . .

« وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

« حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . . يَا وَيْلَنَا ! قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هُوَ آلَهِةَ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَوْجَةٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ، وَهُمْ فِي مَا أُشْتِهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .

« إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * قُلْ : إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .

« قَالَ : رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ... »

هذا الشوط الأخير في السورة بعد عرض سنن الله الكونية ، الشاهدة بوحدة الخالق ؛
وسنن الله في إرسال الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة الأمة ووحدة العقيدة . . يعرض
السياق فيه مشهدا للساعة وأشراطها ، يتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء ؛ ويتفرد
الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير .

ثم يقرر سنة الله في وراثة الأرض ، ورحمة الله للعالمين المتمثلة في رسالة محمد صلى الله
عليه وسلم .

وعندئذ يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينفذ يده منهم ، وأن يدعمهم لمصيرهم ،
فيترك الحكم لله فيهم ؛ ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم ، وانصرافهم إلى اللعب
واللهو ، ويوم الحساب قريب .

« وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا
كفران لسميه ، وإننا له كاتبون . وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ..

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد الذي
تشهد به نواميس الوجود ؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها دون
تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير .

إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد ، بقدر استعداد
كل أمة ، وتطور كل جيل ؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها ، واستعدادها لأنماط
من التكليف ومن التشريعات ؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب ، ومن
نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلا بعد جيل .

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات . . فقد تقطع أتباعها
أمرهم بينهم ، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها . وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ،
وهاجت بينهم العداوة والبغضاء . . وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً
باسم العقيدة . والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة .

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا . ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله ، في الآخرة : « كل إلينا راجعون » فالمرجع إليه وحده ، وهو الذى يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال :

« فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإناله كاتبون » .

هذا هو قانون العمل والجزاء .. لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الإيمان .. وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء ولا يغيب .

ولا بد من الإيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده . ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته ، بل لتثبت للإيمان حقيقته .

إن الإيمان هو قاعدة الحياة ، لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التى تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، وترده إلى الناموس الواحد الذى ارتضاه ، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء . والعمل الصالح هو هذا البناء . فهو منهيار من أساسه ما لم يقم على قاعدته .

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التى تثبت وجوده وحيويته فى الضمير . والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها فى الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمرة . والثمرة اليانعة للجذور الممتدة فى الأعماق .

ومن ثم يقرن القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء . فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر . ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان .

والعمل الطيب الذى لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ، لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم ، ولا موصول بناموس مطرد . وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصل للعمل الصالح فى هذا الوجود . وهو الإيمان بالله يرضى عن العمل الصالح ، لأنه وسيلة البناء فى هذا الكون ، ووسيلة الكمال الذى قدره الله لهذه الحياة . فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها ، لا فلتة عابرة ، ولا نزوة عارضة ، ولا رمية بغير هدف ، ولا اتجاهها معزولاً عن اتجاه الكون وناموسه الكبير .

والجزاء على العمل يتم فى الآخرة حتى ولو قدم منه قسط فى الدنيا . فالقرى التى هلكت

بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتما لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة ، فهي راجعة بكل تأكيد .

« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » ..

إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : « كل إلينا راجعون » لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها . فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفي عدم الرجعة نفيا قاطعا في صورة التحريم لوقوعه . . وهو تعبير فيه شيء من الغرابة ، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن « لا » زائدة . وأن المعنى هي نفى رجعة القرى إلى الحياة في الدنيا بعد إهلاكها . أو نفى رجوعهم عن غيهم إلى قيام الساعة . وكلاهما تأويل لا داعي له . وتفسير النص على ظاهره أولى ، لأن له وجهه في السياق على النحو الذي ذكرنا .

ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد . وهو فتح يأجوج ومأجوج :

« حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخته أبصار الذين كفروا . ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين . إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها ، وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون . إن الذين سبقتم لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسیسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . يوم تطوى السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين » ..

وقد قلنا من قبل عند الكلام على يأجوج ومأجوج في قصة ذي القرنين في سورة الكهف : اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح يأجوج ومأجوج ، ربما يكون قد وقع بانسياح التار وتدققهم شرقا وغربا ، وتحطيم الممالك والعروش . . لأن القرآن قد قال منذ

أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - « اقتربت الساعة » . غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زمانا معيناً للساعة . فحساب الزمن في تقدير الله غيره في تقدير البشر ، « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يحىء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هي تدفق يأجوج ومأجوج من كل حذب في سرعة واضطراب . على طريقة القرآن الكريم في الاستعانة بمشاهدات البشر والترقى بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الآخروية .

وفي الشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التي تهت المفجوثين !

« فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » ..

لا تطرف من الهول الذي فوجئوا به . ويقدم في التعبير كلمة « شاخصة » لرسم الشهد وتبرزه !

ثم يميل السياق عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكاملون ، وبذلك يحى الشهد ويستحضره :
« ياويلنا ! قد كنا في غفلة من هذا . بل كنا ظالمين » ..

وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد قوات الأوان !

وحين يصدر هذا الاعتراف في ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذي لا مرد له :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » :

وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ؛ وكأنما هم يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولا أناة ؛ وكأنما تحصب بهم حصبا كما تحصب بالنواة ! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة . يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع الشهود :

« لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها » ..

وهو برهان وجداني ينتزع من هذا الشهد المعروض عليهم في الدنيا ، وكأنما هو واقع

في الآخرة . . ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلا ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور

حالهم هناك ؛ وهي حال المكروب المذهوب بإدراكه من هول ما هو فيه :

« وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون » .

وندع هؤلاء لنجد المؤمنين في نجوة من هذا كله ، قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة :

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون .. »

ولفظة « حسيها » من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها . فهو تنقل صوت النار وهى تسرى وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجى الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه - فضلا على معاناته - نجوا من الفزع الأكبر الذى يذهل المشركين . وعاشوا فيما تشتهى أنفسهم من أمن ونعيم تولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم فى جو الفزع المرهوب :

« لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذى كنتم توعدون .. »
ويختتم المشهد بمنظر الكون الذى آل إليه . وهو يشارك فى تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها فى ذلك اليوم العصيب :

« يوم تطوى السماء كطى السجل للكتب ... »

فإذا السماء مطوية كما يطوى خازن الصحف صحائفه ؛ وقد قضى الأمر ، وانتهى العرض ، وطوى الكون الذى كان يألفه الإنسان .. وإذا عالم جديد وكون جديد :

« كما بدأنا أول خلق نعيده .. » « وعدا علينا إنا كنا فاعلين .. »

* * *

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء فى الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله فى ورائة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عباده فى الحياة . وبين الشهادين مناسبة وارتباط :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون .. »

والزبور إما أن يكون كتابا بعينه هو الذى أوتيته داود عليه السلام . ويكون الذكر إذن هو التوراة التى سبقت الزبور . وإما أن يكون وصفا لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب

الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ ، الذي يمثل المنهج السكلى ، والمرجع الكامل ، لكل نواميس الله فى الوجود .

وعلى أية حال فالمقصود بقوله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر . . . » هو بيان سنة الله المقررة فى وراثة الأرض : « أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . .

فما هى هذه الوراثة ؟ ومن هم عباد الله الصالحون ؟

لقد استخلف الله آدم فى الأرض لعمارتها وإصلاحها ، وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة ، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها فى علم الله .

ولقد وضع الله للبشر منهجا كاملا متكاملا للعمل على وفقه فى هذه الأرض . منهجا يقوم على الإيمان والعمل الصالح . وفى الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج ، وشرع له القوانين التى تقيمه وتحرسه ؛ وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته .

فى هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقتها هو وحده المقصود . ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ، ليلغ الإنسان كماله المقدر له فى هذه الحياة . فلا ينتكس حيوانا فى وسط الحضارة المادية الزاهرة ؛ ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج فى استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة .

وفى الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة . وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطفاة . وقد يغلب عليها همج ومتبررون وغزاة . وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقتها استغلالا ماديا . . ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق . والوراثة الأخيرة هى للعباد الصالحين ، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح . فلا يفرق فى كيانهم هذان العنصران ولا فى حياتهم .

وحينما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل فى أمة فهى الوراثة للأرض فى أية فترة من فترات التاريخ . ولكن حين يفرق هذان العنصران فالميزان يتأرجح . وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الآخذ بها من يتظاهرون بالإيمان ، وحين تفرغ قلوب المؤمنين

من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض ، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان .

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح ، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجرى سنته : « أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » . .
فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون . .

* * *

وفي النهاية يجيء إيقاع الختام في السورة مشابها لإيقاع الافتتاح !

« إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل : إنما يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . . قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون » . .

« إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين » . إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة . ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة . ومن قواعد العمل والجزاء . . . إن في هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله . ويسمهم « عابدين » لأن العابد خاشع القلب طائع متبهيء للتلقى والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدى إلا أولئك المتهيشون المستعدون . وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين . .

إن المنهج الذي جاء مع محمد - صلى الله عليه وسلم - منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى السكّال المقدر لها في هذه الحياة .

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي : جاءت كتابا مفتوحا للعقول في مقبل الأجيال ، شاملا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل ، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة . وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة ، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها ، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم .

وكفل للعقل البشري حرية العمل ، بكفالة حقه في التفكير ، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير . ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر ، كما تنمو وترقى وتصل إلى السكال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض .

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقا لخطوات البشرية في عمومها ، قابلا لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نموا مطردا . وهو يقودها دائما ، ولا يتخلف عنها ، ولا يقعد بها ، ولا يشدها إلى الخلف ، لأنه سابق دائما على خطواتها متسع دائما لكامل خطواتها .

وهو في تلبية لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي ، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيّات الحياة التي تحققها .

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق . لا يعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد . ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة . ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذي حياة الجماعة ، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

وكافة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته . ولمصلحته ؛ وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف ، وتجعلها محببة لديه - مهما لقي من أجلها الآلام أحيانا - لأنها تلي رغبة من رغائبه ، أو تصرف طاقة من طاقاته .

ولقد كانت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية ، بعدما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة . ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئا فشيئا من آفاق هذه المبادئ ، فتزول غرايبها في حسها ، وتقبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى .

لقد جاء الإسلام لينادى بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . لتلتقى في عقيدة واحدة ونظام اجتماعى واحد . . . وكان هذا غريبا على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك . والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد . . ولكن ها هي ذى البشرية في خلال نصف وثلاثة عشر قرنا تحاول أن تقفو خطى الإسلام ، فتعثر في الطريق ، لأنها لا تهتدى بنور الإسلام الكامل . ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج - ولو في الدعاوى والأقوال - وإن كانت ما تزال أمم في أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نصف وثلاث مئة وألف عام .

ولقد جاء الإسلام ليسوى بين جميع الناس أمام القضاء والقانون . في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانونا . بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدى الرق والإقطاع . . فكان غريبا على ضمير البشرية يومذاك أن ينادى ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء . . ولكن ها هي ذى شيئا فشيئا تحاول أن تصل - ولو نظريا - إلى شيء مما طبقه الإسلام عمليا منذ نصف وثلاث مئة وألف عام .

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما أرسل رحمة للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائفة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفقة ، لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية . في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام .

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها . وهي قلقة حائرة ، شاردة في متاهات المادية ، وجحيم الحروب ، وجفاف الأرواح والقلوب . .

* * *

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يواجه المكذبين المستهزئين ، بخلاصة رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين :

« قل : إنما إلهكم إله واحد . فهل أنتم مسلمون ؟ »

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة . عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية ، ومن أثقال الوثنية ، ومن ضغط الوهم والخرافة . والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة ، فيربطها بالوجود كله ، وفق نواميس واضحة ومنن ثابتة ، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات . واندى يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار .

هذا هو طريق الرحمة . . « فهل أنتم مسلمون ؟ » .

وهذا هو السؤال الواحد الذي يكلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يلقيه على المكذابين المستهزئين .

« فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء » . .

أى كشفت لكم ما عندي فأنا وأنتم على علم سواء . والإيدان يكون في الحرب لإنهاء فترة السلم ، وإعلام الفريق الآخر أنها حرب لا سلام . . أما هنا - والسورة مكية ولم يكن القتال قد فرض بعد - فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نقض يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم . فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون ..

« وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » .

آذنتكم على سواء . ولست أدري متى يحل بكم ما توعدون . فهو غيب من غيب الله . لا يعلمه إلا الله . وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا أو في الآخرة سواء . وهو يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية :

« إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتُمون » . .

فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخفيه . وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله :

« وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » . .

وما أدري ما يريد الله بهذا التأخير . فلهذه يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء ، فيمتعكم إلى أجل ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية ، ويدعهم يتوقعون كل احتمال ، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة . وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء . وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة ، والأعصاب متوفزة ، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل ، عن الغيب المخبوء .

وإن القلب البشرى ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع ، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراء مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في مواعده الغيب المجهول . فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة ، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان .

* * *

وهنا يتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه . وقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة . وأذنهم على سواء ، وحذرهم بغتة البلاء . . يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين ، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم . وهو وحده المستعان :

« قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون » ..

وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول . فهو الذي أرسله رحمة للعالمين ، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون . وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون .

وبهذا المقطع القوى تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوى . فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوى مثير عميق .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ - لِنُبَيِّنَ لَكُمْ - وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَثِلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأُنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَلْقُ ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِي عَظِيمٍ .

لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ *
ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَضُرُّهُ وَمَالًا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ
أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لِيُبْنِيَ الْمَوَلَى وَلِيُبْنِيَ الْعَشِيرُ .

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ
ثُمَّ لِيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ !
« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَالصَّابِئِينَ ، وَالنَّصَارَى ، وَالْمَجُوسَ ،
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .
وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

« هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ . فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ،
يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ
حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ .

هذه السورة مشتركة بين مكة ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها . وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال^(١) . وآيات العقاب بالمثل^(٢) ، فهي مدنية قطعاً . فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة . أما قبل ذلك فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بايعه أهل يثرب ، وعرضوا عليه أن يعيلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوه « إني لم أؤمر بهذا » . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية ، وجو السور المكية . فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث ، وإنكار الشرك . ومشاهد القيامة ، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون .. بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان ، والأمر بالجهاد في سبيل الله .

والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرغبة . والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام .

تبدو هذه الظلال في المشاهد والأمثال ..

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرَوَّنَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا . وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » ..

وكذلك مشهد العذاب : « فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ، يَصُبُّ مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا - مِنْ غَمٍّ - أَعِيدُوا فِيهَا ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » ..

ومثل الذى يشرك بالله : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ..

وحركة من يئأس من نصر الله : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهب كيد ما يغيب » ..

ومشهد القرى المدمرة بظلمها : « فكأين من قرية أهلكتها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ..

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيدهم بالوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين . .

فى الأولى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » ..

وفى الثانية : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » ..

ووراء هذا وذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاعر الرهبة والاستسلام تبدأ بها السورة ، وتتناثر فى ثناياها : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم » . . « ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » . . « فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا وبشر المحبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » . . « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ..

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع العابرين . والأمثلة والعبر والصور والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام . . وهذا هو الظل الشائع فى جو السورة كلها ، والذى يطبعها ويميزها .

ويجربى سياق السورة في أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالنداء العام . نداء الناس جميعا إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ، ووصف الهول المصاحب لها ، وهو هول عنيف مرهوب . ويعقب في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم ، واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال . ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان ، وحياة النبات ؛ مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة وبين أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . . وكلها سنن مطردة وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود . . ثم يعود إلى استنكار الجدل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير بعد هذه الدلائل المستقرة فى صلب الكون وفى نظام الوجود . وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والالتجاء إلى غير حماه ؛ واليأس من نصره الله وعقابه . وينتهى هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب . . وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

ويتصل الشوط الثانى بنهاية الشوط الأول بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعا . يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه . . وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم - عليه السلام - أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وماوراءها من استجاشة مشاعر التقوى فى القلوب ، وهى الهدف المقصود . وينتهى هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا : ربنا الله !

والشوط الثالث يتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يلقاه من صد وإعراض ، وتطمين المسلمين ، بالعاقبة التى لا بد أن تكون . كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسول والنبيين فى دعوتهم ، وثبوت الله لدعوته ، وإحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون ! .

أما الشوط الأخير فيتضمن وعد الله بنصرة من يقع عليه البغى وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون . . وينتهى الشوط وتنتهى السورة معه ببدء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا فى الله حق جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل . .

وهكذا تتساق موضوعات السورة وتتعاقب فى مثل هذا التناسق . .

والآن نبدأ الشوط الأول بالتفصيل :

* * *

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شئ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ؛ وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » . .

مطلع عنيف رعب ، ومشهد ترتجف لهولة القلوب . يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعا : « يا أيها الناس » يدعوهم إلى الخوف من الله : « اتقوا ربكم » ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : « إن زلزلة الساعة شئ عظيم » .

وهكذا يبدأ بالتهويل المجهل ، وبالتجهيل الذى يلقى ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة . وإن الزلزلة « شئ عظيم » ، من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ فى التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل . . إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعى . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها . وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر فى نظراتهم الداهلة ، وفى خطواتهم المترنحة . . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتحلاه . والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . . وهو هول حى لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه فى النفوس الآدمية : فى المرضعات الداهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذى لا يدع بقية من وعى - والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى : « ولكن عذاب الله شديد » . . إنه مطلع عنيف مرهوب تترنزل له القلوب . .

* * *

في ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتناول فيجادل في الله ، ولا يستشعر تقواه :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير » . .

والجدال في الله ، سواء في وجوده تعالى ، أو في وحدانيته ، أو في قدرته ، أو في علمه ، أو في صفة ما من صفاته . . الجدل في شيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً ، والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه . . ذلك الجدل يبدو عجيباً من ذى عقل وقلب ، لا يتقى شر ذلك الهول المزلزل المحتاح .

ويا ليتّه كان جدالاً عن علم ومعرفة ويقين . ولكنه جدال « بغير علم » جدال التناول المجرد من الدليل . جدال الضلال الناشئ من اتباع الشيطان . فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى : « ويتبع كل شيطان مريد » عات مخالف للحق متبجح « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير » . . فهو حتم مقدور أن يضلّ تابعه عن الهدى والصواب ، وأن يقوده إلى عذاب السعير . . ويتهم التعبير فيسمى قيادته أتباعه إلى عذاب السعير هداية ! « ويهديه إلى عذاب السعير » . . فيالها من هداية هي الضلال المهلك المبيد !

* * *

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ؛ ولكنهم هم الذين يعمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين :

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - لنبين لكم - ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلاً ؛ ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . .

إن البعث إعادة حياة كانت ، فهو في تقدير البشر - أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن - بالقياس إلى قدرة الله - شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالإعادة أثر لتوجه

الإرادة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون » .

ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ؛ وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعى ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ ما هم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أى الأطوار مروا ؟

« فإنا خلقناكم من تراب » .. والإنسان ابن هذه الأرض . من ترابها نشأ ، ومن ترابها تكون ، ومن ترابها عاش . وما فى جسمه من عنصر إلا له نظيره فى عناصر أمه الأرض . اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذى أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ؛ وبه افترق عن عناصر ذلك التراب . ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلًا وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب .

ولكن أين التراب وأين الإنسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق السوى المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذى يضع قدميه على الأرض ، ويرف بقلبه إلى السماء ؛ ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب ..

إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد ، تشهد بالقدره التى لا يعجزها البعث ، وهى أنشأت ذلك الخلق من تراب !

« ثم من نطفة . ثم من علقه . ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - لبنين لكم - ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . ثم نخرجكم طفلاً ... »

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضم فى طياتها السر الأعظم . سر الحياة . السر الذى لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية فى كل لحظة من لحظات تلك الملايين . والذى لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمع الإنسان ، وتعلق بأهداب المحل !

ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقه ، وتحول العلقه إلى مضغة ، وتحول المضغة إلى إنسان !

فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل . والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف الحيوانات

المنوية . وحيوان واحد منها هو الذى يلقي البويضة من ماء المرأة فى الرحم ، ويتحد بها فتعلق فى جدار الرحم .

وفى هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوى . . فى هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم - بقدره القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه - فى هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل : صفاته الجسدية وسمانه من طول وقصر ، وضخامة وضآلة ، وقبح ووسامة ، وآفة وصحة . . . كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية : من ميول ونزعات ، وطباع واتجاهات ، وانحرافات واستعدادات . . .

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن فى تلك النقطة العالقة ؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هى هذا الإنسان المعقد المركب ، الذى يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر ، فلا يتماثل اثنان فى هذه الأرض فى جميع الأزمان ؟ !

ومن العلقة إلى المضغة ، وهى قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا . ثم تتخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمى يكسى باللحم ؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام .

« لنبين لكم » . . فهنا محطة بين المضغة والطفل ، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة : « لنبين لكم » . لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح فى المضغة . وذلك على طريقة التناسق الفنى فى القرآن .

ثم يمضى السياق مع أطوار الجنين : « وتقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى » فما شاء الله أن يتم تمامه أفره فى الأرحام حتى يحين أجل الوضع . « ثم نخرجكم طفلاً » . . . ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير !

إنها فى الزمان - تعادل فى العادة - تسعة أشهر . ولكنها أبعد من ذلك جداً فى اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل . النطفة التى لا ترى بالعين المجردة وهذا المخلوق البشرى المعقد المركب ، ذى الأعضاء والجوارح ، والسمات واللامح ، والصفات والاستعدادات ، وال ميول والنزعات . . .

إلا إنها المسافة التى لا يعبرها الفكر الواعى إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . .

ثم يمضى السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق المكن الذى تمت فيه تلك الخوارق الضخام ، فى خفية عن الأنظار !

« ثم تبلغوا أشدكم » . . فتستوفوا نموكم العضلى ، ونموكم العقلى ، ونموكم النفسى . .
وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات فى المميزات أبعد من مسافات
الزمان ! ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التى أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان
الرشيد ، وكل الاستعدادات الكامنة التى تتبدى فيه وتتكشف فى أوانها ، كما أودعت النقطة
العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهى ماء مهين !

« ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد أرذل العمر لـكى لا يعلم من بعد علم شيئا » . .
فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حى . وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة
مفتوحة للتدبر ما زال . فبعد العلم ، وبعد الرشيد ، وبعد الوعى ، وبعد الاكتمال . . إذا هو
يرتد طفلا . طفلا فى عواطفه وانفعالاته . طفلا فى وعيه ومعلوماته . طفلا فى تقديره وتدييره .
طفلا أقل شئ يرضيه وأقل شئ يبكيه . طفلا فى حافظته فلا تمسك شيئا ، وفى ذاكرته فلا
تستحضر شيئا . طفلا فى أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ، ولا تؤدى
فى حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتى على آخرها : « لـكى لا يعلم من بعد
علم شيئا » ولـكى يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذى ربما تخايل به وتطاول ، وجادل
فى الله وصفاته بالباطل !

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء فى الأرض والنبات ، بعد عرض
مشاهد الخلق والإحياء فى الإنسان .

« وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل
زوج بهيج » .

والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، وهو العنصر الأصيل
فى الحياة والأحياء . فإذا نزل عليها الماء « اهتزت وربت » وهى حركة عجيبة سجلها القرآن
قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة
اهتزاز وهى تشرب الماء وتنتفخ فتربو « ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج » .
وهل أبهج من الحياة وهى تتفتح بعد الكون ، وتنتفض بعد الهمود ؟

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أنباء الحياة جميعا ، فيسلـكهم فى آية واحدة من
آياته . وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة . وإنها للدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى
وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك . فى الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » ..

ذلك . . أى إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين فى مراحل تكوينه ، وتطور الطفل فى مراحل حياته ، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود . ذلك متعلق بأن الله هو الحق . فهو من السنن المطردة التى تنشأ من أن خالقها هو الحق الذى لا تختل سننه ولا تتخلف . وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه فى هذه الأطوار ليدل على الإرادة التى تدفعها وتندىق خطاها وترتب مراحلها . فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذى لا يحد . « وأنه يحيى الموتى » فإحياء الموتى هو إعادة للحياة . والذى أنشأ الحياة الأولى هو الذى ينشئها للمرة الآخرة « وأن الله يبعث من فى القبور » ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء . فهذا البعث تفتضيه حكمة الخلق والتدبير .

وإن هذه الأطوار التى يمر بها الجنين ، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن فى دار الكمال . إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله فى حياة الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع « لكى لا يعلم من بعد علم شيئا » فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة . . فهى تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الاعادة . وهى تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان فى الدار الآخرة . .

وهكذا تلتقى نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذى ليس فى وجوده جدال ..

ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل فى الله :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله . له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

والجدال فى الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستسكرا . فكيف إذا كان جدالا بغير علم ، لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهذى إلى اليقين .

والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس . صورة فيها الكبر التعجرف : « ثانى عطفة » مائلا مزورا بجانبه . فهو لا يستند إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر . « ليضل عن سبيل الله » فلا يكتفى بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يجمع ، ولا بد أن يحطم : « له فى الدنيا خزى » فالخزى هو المقابل للكبر . والله لا يدع المتكبرين التعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين . إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزى أعظم ، والتحقيق أوقع . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع : « ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

وفى لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود ، بلفتة صغيرة فى السياق ، من الحكاية إلى الخطاب :

« ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

وكأنما هو اللحظة يلقي التقرير والتبكيت ، مع العذاب والحريق .

ويعضى السياق إلى نموذج آخر من الناس - إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور فى كل جيل - ذلك الذى يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ؛ ويظنها صفقة فى سوق التجارة :

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون مالا يضره ومالا ينفعه . ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه . لبئس المولى ولبئس العشير » ..

إن العقيدة هى الركيزة الثابتة فى حياة المؤمن ، تضرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التى لا تتزعزع ؛ وتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو الى القاعدة التى لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة فى حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوى عليها ، متمكنا منها ، واثقا بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهى فى ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذى يلجأ إليه ، والسند الذى يستند عليه . أجل هى فى ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة لياوى إليها ، ويطمئن بها . هى فى ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين

يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق .
بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول بالله مطمئن بهذا الاتصال .

أما ذلك الصنف من الناس الذى يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة فى سوق التجارة : « فإن أصابه خير اطمأن به » وقال : إن الإيمان خير . فهاهو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمى الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج « وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » . . خسر الدنيا بالبلاء الذى أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذى كان يسيرا له .

والتعبير القرآنى يصوره فى عبادته لله « على حرف » غير متمكن من العقيدة ، ولا مثبت فى العبادة . يصوره فى حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عن مس الفتنة ، ووقنته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب !

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة . فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المتلقى للنور والهدى الذى لا يملك إلا أن يفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها فى ذاتها ، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى ، فهى لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها .

والمؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به . فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة . استحقاقا على الإيمان أو العبادة !

والمؤمن لا يجرب إلهه . فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء . وليست هى صفقة فى السوق بين بائع وشار ، إنما هى إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس والذى ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التى لا شبهة فيها ولا ريب : « ذلك هو الخسران المبين » . . يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى . إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التى يفتن الله بها عباده ، ويبتلى بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره .. ويخسر الآخرة وما فيها من نعم وقربى ورضوان . فياله من خسران !

وإلى أين يتجه هذا الذى يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيدا عن الله ؟ إنه « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » . . يدعو صنما أو وثنا على طريقة . الجاهلية

الأولى . ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده ، والسير على صراطه ونهجه . . فما هذا كله ؟ إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذى يجدى فيه الدعاء : « ذلك هو الضلال البعيد » المغرق في البعد عن الهدى والاهتداء . . « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » من وثن أو شيطان ، أو سند من بنى الإنسان . . وهذا كله لا يملك ضرا ولا نفعاً ؛ وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر . وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل . وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران « لبئس المولى » ذلك الضعيف لا سلطان له في ضر أو نفع « ولبئس العشير » ذلك الذى ينشأ عنه الخسران . يستوى في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بنى الإنسان ، ممن يتخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان !

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله في الفتنة والابتلاء :

« إن الله يدخل الدين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . إن الله يفعل ما يريد » . .

فمن مسه الضر في فتنة من الفتن ، وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ؛ ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ؛ وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شئ من ذلك بمبدل ما به من البلاء :

« من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » !

وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يحسم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عند ما ينزل بها الضر وهى على غير اتصال بالله .

والذى ييأس في الضر من عهد الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخية ، وكل رجاء في الفرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .

فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يخنق . ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيخنق . . ثم لينظر هل ينقذه تديره ذاك مما يعيظه !

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله . ولا سبيل إلى الفرج إلا بالنوجه إلى الله . ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر ، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله . . فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح الله . . .

* * *

بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولتماذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدى به من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية :
« وكذلك أنزلناه آيات بينات ، وأن الله يهدي من يريد » . .

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال . فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته ، وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال . إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما في الآيات من بيان يقتضى الهدى في القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة في الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل ما في عقائدها من حق أو باطل ، ومن هدى أو ضلال :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا . . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » . .

وقد سبق تعريف هذه الفرق . وهى تذكر هنا بمناسبة أن الله يهدي من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين ، وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه في النهاية ، وهو على كل شيء شهيد .

وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله - فيما عداهم - يتجه بفطرته إلى خالقه ، يخضع لناموسه ، ويسجد لوجهه :

« ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم ،

والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم . إن الله يفعل ما يشاء » . .

ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك . وإذا حشد من الأفلاك والأجرام . مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم . وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان . . إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه . تتجه إليه وحده في وحدة واتساق . إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق : « وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب » فيبدو هذا الإنسان عجيبا في ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان : « ومن يهن الله فما له من مكرم » . . فلا كرامة إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله . وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

ثم مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، في صورة واقع يشهد كأنه معروض للعيان :

« هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .

إنه مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذي يبعثه في النفس نسق التعبير . فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبعه في تجدد . .

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس ! وهذه سياط من حديد أحمتها النار . . وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهب « الذين كفروا » من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا « الغم » وها هم أولاء يردون بعنف ، ويسمعون التأنيب : « وذوقوا عذاب الحريق » . .

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى آخرها ، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف ، لبدأ في العرض من جديد !

ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر ، الذي يستطرد السياق إلى عرضه . فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا في ربهم . فأما الذين كفرا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة ! وأما الذين آمنوا فهم هنالك في الجنات تجري من تحتها الأنهار . وملابسهم لم تقطع من النار ، إنما فصلت من الحرير . ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ . وقد هداهم الله إلى الطيب من القول ، وهداهم إلى صراط الحميد . فلا مشقة حتى في القول أو في الطريق . . والهداية إلى الطيب من القول ، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر في مشهد النعيم . نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وتلك عاقبة الخصام في الله . فهذا فريق وذلك فريق . . فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البينات ، ومن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ . وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . » وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلا تَشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

« ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ . وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ - إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ - فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ . وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ .

« ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ . فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .

« وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ .

« إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

انتهى الدرس الماضي بتصوير عاقبة الخصام في الله ، ومشهد الجحيم الحارق للكافرين ،
والنعم الوارف للمؤمنين .

وبهذه النهاية يتصل الدرس الجديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله
والمسجد الحرام . وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية في مكة ، فيصدون الناس عنها ،
ويواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذي أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم - عليه السلام - في بنائه ، والأذان في الناس بالحج إليه . ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفي عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا ، سواء المقيم فيه والطارىء عليه ، لا يمنع منه أحد ، ولا يملكه أحد .. ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به .. وينتهى إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذي قام عليه ؛ وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التي تفرضها حماية العقيدة .

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس . سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » ..

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله - وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذي شرعه للناس ، وهو نهجه الذي اختاره للعباد - وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام - كما فعلوا عام الحديبية - وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام ، وواحة اطمئنان . يستوى فيه المقيم بمكة والطارىء عليها . فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : « سواء العاكف فيه والباد » .

ولقد كان هذا النهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام . يلقي فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجسد كل أحد فيها مأواه . لا تفضلا من أحد ، ولكن حقا يتساوى فيها الجميع .

ولقد اختلفت أقوال الفقهاء في جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها . وفي جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها .. فذهب الشافعى رحمه الله - إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - اشترى من صفوان ابن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا . وذهب اسحاق ابن راهويه - رحمه الله - إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر ، وماتدعى ربيع مكة (جمع ربيع) إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن . وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهم - أنه

قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم . وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها . فكان أول من بوّب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر ابن الخطاب في ذلك ، فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن أأخذ لي بابين يحبسان لي ظهري (أى ركائبي) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر ابن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادي حيث يشاء . . . وتوسط الإمام أحمد - رحمه الله - فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعا بين الأدلة .

وهكذا سبق الإسلام سبقا بعيدا بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان !

والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . . . فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير ، ومبالغة في التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن في الجملة : « إن الذين كفروا ويصدون عن صبيل الله والمسجد الحرام . . . » فلا يذكّرهم ما لهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم !

* * *

ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذي يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك . . . يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم - عليه السلام - بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التي أقيم عليها وهي قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد ، وتخصيصه للطائفتين به والقائمين لله فيه :

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا ، وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويدكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ..

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم - عليه السلام - وملكه أمره ليقمه على هذا الأساس : « ألا تشرك بي شيئا » فهو بيت الله وحده دون سواه . وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود » فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام - باني البيت - إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذن في الناس بالحج ؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعدته أن يلبي الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوبا « على كل ضامر » جهده السير فضرر من الجهد والجوع :

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى اليوم والغد . وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ؛ وترف إلى رؤيته والطواف به . . الغنى القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ؛ والفقر المعدم الذي لا يجد إلا قدميه . وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم - عليه السلام - منذ آلاف الأعوام . .

ويقف السياق عن بعض معالم الحج وغاياته :

« ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . .

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة . . أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء . من أطراف الأرض ؛ ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم . يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ؛ وسوق عالمية تقام في كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام . وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد . .

طيف إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعالمهم يشكرون » .

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة المتلهية حول البيت ، وهى تهزول بين الصفا والمروة وقد نهكتها العطش ، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل . . ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضىء . وإذا هى زمزم . ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجذب .

وطيف إبراهيم - عليه السلام - وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد فى التضحية بفلذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : « قال : يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فتجيبه الطاعة الراضية فى إسماعيل - عليه السلام - : « قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . . وإذا رحمة الله تتجلى فى الفداء : « وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إن كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » . .

وطيف إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يرفعان القواعد من البيت ، فى إنابة وخشوع : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم » . .

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب ، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول السكبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مئة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة . فيقبل منه الفداء ، فينحر المئة وينجو عبد الله . ينجو ليودع رحم آمنة أظهر نطفة وأكرم خلق الله على الله - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم يموت ! فكمأ فداء الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت .. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفيء الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل .. وهو يصلى .. وهو يطوف .. وهو يخطب .. وهو يعتكف .. وإن خطواته - عليه الصلاة والسلام - لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير . يكاد الحاج هناك يلسحها وهو مستغرق في تلك الذكريات .. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل : « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا » .. ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعا إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعا ويلتقون عليها جميعا .. ويجدون رايهم التي يفيثون إليها . راية العقيدة الواحدة التي تتواري في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً . قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين . الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايها الواحدة التي لا تعدد راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام . في ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . في أنسب مكان ، وأنسب جو ، وأنسب زمان ..

فذلك إذ يقول الله سبحانه : « ليشهدوا منافع لهم » .. كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته . وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم - عليه السلام - أن يؤذن به في الناس .

ويمضى السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها :

« ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » ..

وهذه كناية عن نحر الذبائح في أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنا هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته ..

والنحر ذكرى لفداء اسماعيل — عليه السلام — فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم واسماعيل — عليهما السلام — فوق ما هو صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء . وبهيعة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم والمعز .
« فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » ..

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو الاستحباب . أما الأمر بإطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب . ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة .

وبالنحر ينتهى الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره ، وتنف شعر الإبط ، وقص الأظافر والاستحمام . . . مما كان ممنوعاً عليه في فترة الإحرام . وهو الذى يقول عنه : « ثم ليقضوا تفهم ، وليوفوا نذورهم » التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج . « وليطوفوا بالبيت العتيق » . طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعار الحج . وهو غير طواف الوداع .

والبيت العتيق هو المسجد الحرام أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار . وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معموراً منذ إبراهيم عليه السلام ولن يزال .

* * *

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه . بيت أمر الله خليله إبراهيم — عايه السلام — بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك ، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه . ليدكروا اسم الله — لأسماء الآلهة المدعاة — على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . ويأكلوا منها — ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه . . فهو بيت حرام حرمت الله فيه مصونة — وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود — إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق . وحرمة الهدنة والسلام .

« ذلك . ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأحللت لكم الأنعام — إلا ما يتلى عليكم — فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ..

وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع . فالضمير الذى يتحرج هو الضمير الذى يتطهر

والحياة التي ترعى فيها حرمة الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها متابة آمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان ..

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام - كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى - فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمة الله بينما هم يعتدون على حرمة الله - فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها - كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : « وأحل لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم » . وذلك كي لا تكون هنالك حرمة إلا لله ؛ وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس - والرجس دنس النفس - والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » ..

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك . . وهكذا روى الإمام أحمد - بإسناده - عن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : « عدلت شهادة الزور للإشراك بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية ...

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : « حنفاء لله غير مشركين به » . . ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تنزل قدماءه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً :

« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ..

إنه مشهد الهوى من شاهق « فكأنما خر من السماء » . وفى مثل لمح البصر يتمزق « فتخطفه الطير » أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار : « أو تهوى به الريح في مكان سحيق » فى هوة ليس لها قرار !

والملاحظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها فى اللفظ (بالفاء) وفى المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير .

وهى صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذى يشوب إليه ؛ فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهذا الوجود الذى يعيش فيه .

* * *

ثم يعود السياق من تعظيم حرمت الله باتقائها والتخرج من المساس بها . . إلى تعظيم شعائر الله - وهى ذبائح الحج - باستسمانها وغلاء أثمانها :

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق » .

ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ؛ إذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هى إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل فى طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم - عليه السلام - وما تلاه . وهى ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهى والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان فى حاجة إليها يركبها ، أو فى حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها - أى مكان حلها - وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

« وقد كان المسلمون على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - يغالون فى الهدى ، يختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلاث مئة دينار ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مئة دينار . أفأبيعها وأشتري بضمنها بدنا^(١) ؟ قال : « لا . انحرها إياها » .

والناقة النجيب التى جاءت هدية لعمر - رضى الله عنه - وقومت بثلاث مئة دينار لم يكن عمر - رضى الله عنه - يريد أن يضمن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها نوقا أو بقرا

(١) جمع بدنة وهى الناقة أو البقرة ونجزيء فى الحج عن ثمانية من الناس .

للذبح . فشاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يضحي بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقا كثيرة ، قد تعطى لهما أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة « فإنها من تقوى القلوب » . وهذا هو المعنى الذى لحظه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول لعمر - رضى الله عنه - « انحرها إياها » هى بذاتها لا سواها !

* * *

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة فى شتى الأمم ؛ إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

« ولكل أمة جعلنا منسكا ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فإلهمكم إله واحد . فله أسلموا وبشر المحبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » . .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ؛ إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ؛ وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله . « ولكل أمة جعلنا منسكا ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » . .

ويعقب بتقرير الوحدانية : « فإلهمكم إله واحد » . . وبالأمر بالإسلام له وحده : « فله أسلموا » . . وليس هو إسلام الإيجاب والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : « وبشر المحبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجد فى ضمائرهم ومشاعرهم . « والصابرين على ما أصابهم » فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . « والمقيمي الصلاة » . فهم يعبدون الله حق عبادته . « ومما رزقناهم ينفقون » فهم لا يضمنون على الله بما فى أيديهم . .

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . وهى منبثقة من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية فى شتى الاتجاهات^(١) .

ويستطرد السياق في تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن :

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون .. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين » ..

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم ، فجعل فيها خيراً وهي حية تركب وتحلب ، وهي ذبيحة تهدي وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهي تهباً للنحر بصف أقدامها : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » . والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة - « فإذا وجبت جنوبها » وأطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استجباباً ، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : « كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » ..

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها - لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة !

« كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم » .. فقد هداكم إلى توحيدهِ والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه .

« وبشر المحسنين » .. الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله في كل نشاط الحياة .

وهكذا لا يخطو المسلم في حياته خطوة ، ولا يتحرك في ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله . ويجيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه . فإذا الحياة كلها عبادة تتحقق بها إرادة الله من خلق العباد ، واتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة السبب بالسماء .

* * *

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر ،

وتتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ،
الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم
اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة
في ظل دين الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها
لهم فيما يلي من الآيات :

«إن الله يدافع عن الدين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون
بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا :
ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في
الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر . والله عاقبة الأمور » ..

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى
والضلال ؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامع والباطل مسلح . وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك
أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان
والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقياها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ،
اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة
المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد
وللاحتمال أمد ، وللاطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم . ومن ثم لم
يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون
من وسائل الجهاد .. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنتهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته :
« إن الله يدافع عن الدين آمنوا » ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما : « إن الله لا يحب كل
خوان كفور » ..

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبشرين : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ..

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : « وإن الله على نصرهم لقدير » .. وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة . وذلك فوق أنهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » . . . وهى أصدق كلمة أن يقال ، وأحق كلمة بأن يقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغى المطلق الذى لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصى من ناحية المعتدى عليهم . إنما هى العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التى تشتجر فيها الأطماع ؛ وتتعارض فيها المصالح ، وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذه كله تلك القاعدة العامة . . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .. والصوامع أما كن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهى أوسع من الصوامع ، والصلوات أما كن العبادة لليهود . والمساجد أما كن العبادة للمسلمين .

وهى كلها معرضة للهدم - على قداستها وتخصيصها لعبادة الله - لا يشفع لها فى نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أى دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين يتهاكئون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التى يصول بها ويجول . ولا يكفى الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه . وهى قاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار فى عالم النفس وعالم الحياة .

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » ..

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه ، ظاهر حتما على عدوه . . فقيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وقيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وقيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهاد والمشقة ، والتضحية والآلام . . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحمايتها من « التنازلة » الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والخبرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمشون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ؛ ولتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوي عليه ؛ وتصل إلى أ كمل ما هو مقدور لها وما هي مهياة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفير كل استعدادها ، وتجميع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هينا لينا على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها ..

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولا لانه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانيا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم . ومن الفرح والنعم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنایا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقاط الضعف ونقط القوة ، وتدير الأمور في جميع الحالات .. وكلها ضرورية للامة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله .. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء (١) .

والنصر قد يبطيء على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريد بها الله .

قد يبطيء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا !

وقد يبطيء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا ، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله .

(١) والإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والموادعة .. إن السلام هو غاية الإسلام . كما تقرر آيات أخرى كثيرة في القرآن . ولسكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغى ولا عدوان . أما حيث يقع البغى والعدوان على أى مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة كحرية العقيدة وحرية العبادة ، والعدل في الحكم ، والعدل في الجزاء ، والعدل في توزيع المغام والمغرم والحقوق والواجبات ، واستقامة السلوك الفردي والجماعي على حدود الله .. أما حيث يقع البغى على أى مقوم من هذه المقومات في أية صورة من الصور ، سواء وقع من فرد على فرد ، أو من فرد على جماعة ، أو من جماعة على فرد أو جماعة ، أو من دولة ، على دولة . فالإسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان . فليس السلام في الإسلام هو المهادنة والموادعة إنما هو تحقيق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد .. (يراجع بتوسع كتاب السلام العالمى والإسلام) .

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما ينزل النصر من عند الله عند ما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عند ما يتأذن به الله . فلا تطفئ ولا تتحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لنداتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه . وقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأبها في سبيل الله . فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(١) » .

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطيء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من الخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فنظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تنهأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه !

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطيء النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الدين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه :

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ والله عاقبة الأمور » . .

فوعده الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوى العزيز الذي لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء :

« الذين إن مكناهم في الأرض » . . حققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر . . « أقاموا الصلاة » . . فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين . . « وآتوا الزكاة » . . فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحى - كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . . « وأمروا بالمعروف » . . فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس . . « ونهوا عن المنكر » . . فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه . .

هؤلاء هم الذين ينصرون الله ، إذ ينصرون نهجه الذى أراده للناس فى الحياة ، معتزين بالله وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين .

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه . . والأمر بعد ذلك لله ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عند ما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف : « والله عاقبة الأمور » . .

إنه النصر الذى يؤدى إلى تحقيق المنهج الإلهى فى الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التى يتوارى فى ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . .

وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . .

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكَذَّبَ مُوسَى ، فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ؟ أَوْ آذَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا ! فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَأَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ، وَإِلَى الْمَصِيرِ .

« قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِيُحْكَمْ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » . . .

انتهى الدرس السابق عند الإذن بالقتال لحماية العقائد والشعائر ؛ ووعده الله بالنصر لمن ينهضون بتكاليف العقيدة ، ويحققون النهج الإلهي في حياة الجماعة .

وإذ انتهى من بيان تكاليف الأمة المؤمنة أنشأ يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره ؛ ولخذلان أعدائه ، كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل - عليهم السلام - وأخذ المكذبين على مدار الأجيال . وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

ثم يطمئن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن الله يحمي رسله من كيد الشيطان كما يحميهم من كيد المكذبين . ويبتلى ما يحاوله الشيطان ويحكم آياته ويجلوها للقلوب السليمة . فأما القلوب المريضة والقلوب الكافرة فتظل الريبة فيها حتى تنتهي بها إلى شر مصير . .

فالدروس كلها بيان لآثار يد القدرة وهي تتدخل في سير الدعوة ، بعد أن يؤدي أصحابها واجبهم ، وينهضوا بتكاليفهم التي سبق بها الدرس الماضي في السياق .

« وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأملت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير ؟ » ..

فهي سنة مطردة في الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون . فليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون . والعاقبة معروفة ، والسنة مطردة « فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط » .. ويفرد موسى بفقرة خاصة : « وكذب موسى » أولا . لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملكه . وثانياً لوضوح الآيات التي جاء بها موسى وتعددتها وضخامة الأحداث التي صاحبها . . وفي جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حيناً من الزمان - كما أملى لقريش - ثم أخذهم أخذاً شديداً . . وهنا سؤال للتهويل والتعجيب : « فكيف كان نكير ؟ » .. والنكير هو الإنكار العنيف المصحوب بالتغيير . والجواب معروف . فهو نكير مخيف ! نكير الطوفان والحسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع . .

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعم في عرض مصارع الغابرين :

« فكأى من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ؛ وبر معطلة ، وقصر مشيد » .

فهى كثيرة تلك القرى المهلكة بظلمها . والتعبير يعرض مصارعها فى مشهد شاخص مؤثر : « فهى خاوية على عروشها » . . والعروش السقوف ، وتكون قائمة على الجدران عند قيام البناء . فإذا تهدم خرت العروش وسقطت فوقها البنيان ، وكان منظرها هكذا موحشا كثيبا مؤثرا . داعيا إلى التأمل فى صورتها الخالية وصورتها البادية . والرابع الخربة أوحش شئ للنفس وأشدّها استجاشة للذكرى والعبرة والخشوع .

وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها . . الآبار المعطلة المهجورة تذكر بالورد والورداد ؛ وتزاحم حولها الأخيلة وهى مهجورة خواء .

ثم إلى جوارها القصور المشيدة وهى خالية من السكان موحشة من الأحياء ، تطوف بها الرؤى والأشباح ، والد كريات والأطياف !

يعرض السياق هذه المشاهد ثم يسأل فى استنكار عن آثارها فى نفوس المشرّكين الكفار : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » !

إن مصارع الغابرين حيالهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات . . « أفلم يسيروا فى الأرض » فيروها فتوحى لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحديثهم بما تنطوى عليه من عبر ؟ « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » فتدرك ما وراء هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تبدل . « أو آذان يسمعون بها » فتسمع أحاديث الأحياء عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة ؟ .

أفلم تكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » !

ويعن فى تحديد مواضع القلوب : « التى فى الصدور » زيادة فى التوكيد ، وزيادة فى إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد !

ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة المائلة فى مصارع الغابرين ، وهى حولهم كثير .

ولكنهم بدلا من التأمل في تلك المصارع ، والجنوح إلى الإيمان ، والتقوى من العذاب ..
راحوا يستعجلون بالعذاب الذي أخره الله عنهم إلى أجل معلوم :

« ويستعجلونك بالعذاب . ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة
مما تعدون » ..

وذلك دأب الظالمين في كل حين . يرون مصارع الظالمين ، ويقرأون أخبارهم ويعلمون
مصائرهم . ثم إذا هم يسلكون طريقهم غير ناظرين إلى نهاية الطريق ! فإذا ذكروا بما نال
أسلافهم استبعدوا أن يصيبهم ما أصابهم .. ثم يطغى بهم الغرور والاستهتار إذا أملى لهم الله على
سبيل الاختبار . فإذا هم يستخرون ممن يخوفهم ذلك المصير . وإذا هم - من السخرية -
يستعجلون ما يوعدون ! « ولن يخلف الله وعده » فهو آت في موعده الذي أراده الله وقدره
وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجلاه كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله . وتقدير
الزمن في حساب الله غيره في حساب البشر : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » ..

ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ؛ فلم يكن هذا الإملاء منجيا لها من المصير
المحتوم والسنة المطردة في هلاك الظالمين :

« وكأى من قرية أملت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها ، وإلى المصير » ..

فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزأون بالوعيد ، بسبب إملاء الله لهم حيناً
من الزمان إلى أجل معلوم ؟ .

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله في المكذبين .. يلتفت
السياق بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم
من مصير :

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق
كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم » ..

ويعحض السياق وظيفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذا المقام للإنذار : « إني
لكم نذير مبين » .. لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار ..
ثم يأخذ في تفصيل المصير :

فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بشمرته التي تدل على تحققه : « وعملوا الصالحات » فجزاؤهم « مغفرة من ربهم » لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم : « ورزق كريم » غير منهم ولا مهين !

وأما الذين بذلوا غاية جهدهم في تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتتحقق في حياة الناس - وآيات الله هي دلائله على الحق وهي شريعته كذلك للخلق - فأما هؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم - ويا لسوءها من ملكية - في مقابل ذلك الرزق الكريم !

والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين.. يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية . وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانى تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها . فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيتهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها . . فيبطل الله كيد الشيطان ، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها ، فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة في قيم الدعوة ووسائلها :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ؛ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ».. لقد رويت في سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير في تفسيره : « ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلاً رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد ابن إسحاق الشيبى ، حدثنا محمد ابن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ما ناله

وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وذات بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم - أى المشركون - لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها فى السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة فى الناس ؛ وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان ابن مظعون وأصحابه ؛ وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ؛ وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ؛ وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من القرية ، وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . وإن الظالمين لى شقاق بعيد » . فلما بين الله قضاءه ، وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضاللتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم . .

قال ابن كثير : وقد ساق البغوى فى تفسيره روايات مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد ابن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل ها هنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله - صلوات الله وسلامه عليه - ثم حكى أجوبة عن الناس ، من ألطفها أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك . فتوهموا أنه صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس كذلك فى نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن - صلى الله عليه وآله وسلم - والله أعلم .

وقال البخارى : قال ابن عباس : « فى أمنيته » إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه .
فيبطل الله ما يلقى الشيطان « ثم يحكم الله آياته » .

وقال مجاهد : « إذا تمنى » يعنى إذا قال ؛ ويقال أمنيته : قراءته .

وقال البغوى : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : « تمنى » أى تلا وقرأ كتاب الله
« ألقى الشيطان فى أمنيته » أى فى تلاوته .

وقال ابن جرير عن تفسير « تمنى » بمعنى تلا : هذا القول أشبه بتأويل الكلام !

هذه خلاصة تلك الرويات فى هذا الحديث الذى عرف بحديث الغرائق . . وهو من
ناحية السند واهى الأصل . قال علماء الحديث : إنه لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواه
بسند سليم متصل ثقة . وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى - صلى
الله عليه وسلم - بإسناد متصل يجوز ذكره . وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول
العقيدة وهو عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - من أن يدس عليه الشيطان شيئاً فى
تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون فى هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا
حوله عجاجة من القول . والأمر فى هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون
موضوعاً للمناقشة .

وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا ، وأن يكون
مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول - صلى الله عليه وسلم - فالنص يقرر أن هذه قاعدة عامة فى
الرسالات كلها مع الرسل كلهم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى
الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته » . . فلا بد أن يكون
المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً ، بوصفهم من البشر ،
بما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله . والله أعلم بمراده ، إنما نحن نفسر كلامه بقدر ادراكنا البشرى . .
إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شئ إلى نفوسهم أن
يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذى جاء بهم من عند الله فيتبعوه . . ولكن
العقبات فى طريق الدعوات كثير . والرسل بشر محدودو الأجل . وهم يحسون هذا ويعلمونه .
فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق . . يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما

يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيثوا إلى الهدى ، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون . ويودون . من مثل هذه الأمناني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها . . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم . . هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق . فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثنى هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش ، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء . .

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية ، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات . فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، والقاء الشبهات حولها في النفوس . . ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة . كما حدث في بعض تصرفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي بعض اتجاهاته ، مما بين الله فيه بيانا في القرآن ..

بذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته ، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب :

« والله عليم حكيم » . . فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ؛ فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق : « وإن الظالمين لفي شقاق بعيد » . وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل : « وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ..

وفي حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا ، تغنيها عن تأويل الكلام ، الذي أشار إليه الإمام ابن جرير رحمه الله .

نجد من ذلك مثلاً في قصة ابن أم مكتوم - رضي الله عنه - الأعمى الفقير الذي جاء

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ، ويكرر هذا القول والرسول - صلى الله عليه وسلم - مشغول بأمر الوليد ابن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش ، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشغول بهذا الأمر . حتى كره ، رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلحاحه فعبس وأعرض عنه .. فأنزل الله في هذا قرآنا يعاتب فيه الرسول عتابا شديدا :

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ؟ كلا ! إنها تذكرة فمن شاء ذكره ... » .

وبهذا رد الله للدعوة موازينها الدقيقة وقيمتها الصحيحة . وصحح تصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي دفعته إليه ، رغبته في هداية صناديد قريش ، طمعا في إسلام من وراءهم وهم كثيرون . فبين الله له : أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد . وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة ، وأحكم الله آياته . واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك يكرم ابن أم مكتوم . ويقول إذا رآه : « مرحبا بمن عاتبني فيه ربي » ويقول له : « هل لك من حاجة » واستخلفه على المدينة مرتين .

كذلك وقع مارواه مسلم في صحيحه قال : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، حدثنا محمد ابن عبد الله الأسدي ، عن اسرائيل ، عن المقدم ابن شريح ، عن أبيه ، عن سعد - هو ابن أبي وقاص - قال : كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر . فقال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أطردهؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما . فوقع في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

وهكذا رد الله للدعوة قيمها المجردة ، وموازينها الدقيقة . ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك . الثغرة . ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم في أن لا يحضر هؤلاء الفقراء مجلسهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء ، وما يتبع إسلامهم من إسلام الألوفا معهم وتقوية الدعوة في نشأتها بهم -

كما كان يتمنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية ، وهو الاستقامة التي لا ترعى هوى شخصيا ولا عرفا جاريا !

ولعله مما يلحق بالمثلين المتقدمين ما حدث في أمر زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد زوجها من زيد ابن حارثة - رضى الله عنه - وكان قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد ابن محمد . فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة فقال تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » وقال : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » . . . وكان زيد - رضى الله عنه - أحب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فلم تستقم بينهما الحياة . . . وكانوا في الجاهلية يكرهون أن يتزوج المتبنى مطلقة متبناه . فأراد الله سبحانه إبطال هذه العادة ، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه . فأخبر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد - لتكون هذه السنة مبطلة لتلك العادة - ولكن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخفى في نفسه ما أخبره به الله . وكان كلما شكا إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : « أمسك عليك زوجك » مراعىا في هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد . وظل يخفى ما قدر الله إظهاره حتى طلقها زيد . . . فأنزل الله في هذا قرآنا ، يكشف عما جال في خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقرر القواعد التي أراد الله أن يقوم تشريعها في هذه المسألة عليها :

« إذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » .

واقصد صدقت عائشة - رضى الله عنها - وهي تقول : لو كنتم محمد - صلى الله عليه وسلم - شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم : « وتخفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها ، وكشف ما خالج خاطر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه . ولم يمكن للشيطان أن يدخل من هذه الثغرة . وترك الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم يتخذون من هذه الحادثة ، مادة للشقاق والجدال ماتزال !!!

هذا هو ما نطمئن إليه في تفسير تلك الآيات . والله الهادي إلى الصواب .

ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات - بعد الرسل - والرغبة الملاحية في انتشار الدعوات وانتصارها . . تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة بحسبونه هم ليس أصيلا فيها ، ومجاراتهم في بعض أمرهم كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها !

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم . وذلك حرصا على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها . واجتهادا في تحقيق « مصلحة الدعوة » ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير . أما النتائج فهي غيب لا يعلمه إلا الله . فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج ؛ إنما يجب أن يعضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق ، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة لله . ولن تكون إلا خيرا في نهاية المطاف .

وها هو ذا القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطان يربص بأمانهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة . وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم . فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة والحرص على ما يسمونه « مصلحة الدعوة » . . إن كلمة « مصلحة الدعوة » يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان يأتهم منه ، حين يعز عليه أن يأتهم من ناحية مصلحة الأشخاص ! ولقد تحول « مصلحة الدعوة » إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ! . . إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرا على الدعوة وأصحابها ! فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيرا أو قليلا . والله أعرف منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين . إنما هم مكلفون بأمر واحد . ألا ينحرفوا عن المنهج ، وألا يحيدوا عن الطريق . .

* * *

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الدين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين :

« ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله يحكم بينهم . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » .

ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقي الشيطان في أمنيات الأنبياء والرسل ، لما بين الشائنين من تشابه واتصال . فهم لا يزالون في ريبة من القرآن وشك . منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق . ويظل هذا حالهم « حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم » بعد قيام الساعة ، ووصف هذا اليوم بالعقيم وصف يلقي ظلا خاصا . فهو يوم لا يعقب . . إنه اليوم الأخير . .

في هذا اليوم الملك لله وحده . فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهري الذي كان يظنه الناس في الأرض ملكا . والحكم يومئذ لله وحده ، وهو يقضى لكل فريق بجزائه المقسوم : « فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم » . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين » . جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البينات . وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم . .

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ غَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ . »
« ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . »

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ؟ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . »

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ .

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ ، وَأُدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٌ * وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلْ : اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَافِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

« وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . قُلْ : أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؟ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

انتهى الدرس الماضى ببيان عاقبة المؤمنين والمكذبين يوم يكون الملك لله وحده . وذلك فى سياق نصرة الله لرسوله ، وصيانتة لدعوته ، وثوابه لمن يؤمن بها ، وعقابه لمن يكذبها ..

فالآن يبدأ هذا الدرس بالحديث عن المهاجرين ، بعد ما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعا عن عقيدتهم ، وعن عبادتهم ، ودفعاً للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعد له لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال . .

ثم يتحدث بصفة عامة فى صورة حكم عام عمن يقع عليهم الاعتداء فيردون عليه بمثله ، ثم يقع عليهم البغى والعدوان ، فيعدهم نصر الله فى صيغة التوكيد .

ويعقب على هذا الوعد الوثيق باستعراض دلائل القدرة التى تضمن تحقيق ذلك الوعد الوثيق . . وهى دلائل كونية تتجلى فى صفحات الكون ونواميس الوجود ؛ وتوحى بأن نصر الله للمظلومين الذين يدفعون عن أنفسهم ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم . ثم يقع عليهم البغى . . سنة كونية ترتبط بنواميس الوجود الكبرى . .

وعندئذ يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن لكل أمة منهجها هى مأمورة به ومهياة لنهجها ، كل يشغل نفسه بمجدال المشركين ، ولا يدع لهم فرصة لينازعوه فى منهجها . فإن جادلوه فليكل أمرهم إلى الله ، الذى يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، فهو أعلم بحقيقة ما هم عليه ، وهو الذى يعلم ما فى السماء والأرض .

ويعرض لعبادتهم ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم ؛ وبقسوة قلوبهم ونفورهم من سماع كلمة الحق ، حتى ليكادون يبطشون بالدين يتلون عليهم آيات الله . ويهددهم بإزاء همهم بالسطو على دعاة الحق بالنار التى جعلها الله مصيرهم ووعدهم بها وعدا لا بد آت !

ثم يعلن فى صورة بيان عام شامل للخلقة عن ضعف من يدعونهم من دون الله . ويصور ضعفهم فى صورة زرية لا مبالغة فيها . ولكنها بطريقة عرضها تجسم الضعف المزرى . فهى صورة من لا يقدر على منازلة الدياب ، ولا على استنقاذ ما يسلبهم إياه الذباب . . وهم آلهة كما يدعى لهم المشركون !

وينتهى الدرس وتنتهى السورة معه بتوجيه الخطاب إلى الأمة المؤمنة لتنهض بتكاليفها .

وهي تكاليف الوصاية على البشرية . مستعدة لها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ، مستعينة عليها بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله . .

« والذين هاجروا في سبيل الله ، ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حلیم » . .

والهجرة في سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعز به وتحرص عليه : الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال وسائر أعراض الحياة . وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعا إلى ما عنده وهو خير مما في الأرض جميعا .

والهجرة كانت قبل فتح مكة وقيام الدولة الإسلامية . أما بعد الفتح فلم تعد هجرة . ولكن جهاد وعمل — كما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمن جاهد في سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة ، وكان له ثوابها . .

« والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقا حسنا » . . سواء لاقوا الله شهداء بالقتل ، أو لاقوه على فراشهم بالموت . فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير ، واستروحوا الشهادة في هجرتهم عن أى طريق ، وضحوا بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا الله . فتكفل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه : « ليرزقهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين » . . وهو رزق أكرم وأجزل من كل ما تركوا : « ليدخلهم مدخلا يرضونه » فقد خرجوا مخرجاً يرضى الله ، فتعهد لهم الله بأن يدخلهم مدخلا يرضونه . وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوخى ما يرضونه فيحققه لهم ، وهم عباده ، وهو خالقهم سبحانه . « وإن الله لعليم حلیم » . . عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى ، وبما يرضى نفوسهم ويعوضها . حلیم يمهل . ثم يوفى الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى . .

فأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون ، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى . فإن لم يكف المعتدون ، وعاودوا البغى على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين :

« ذلك . ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله . إن الله لعفو غفور » وشرط هذا النصر أن يكون العقاب قصاصا على اعتداء لا عدوانا ولا تبطرا ؛ وألا يتجاوز العقاب مثل ما وقع من العدوان دون مغالاة .

ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله عفو غفور . فهو الذى يملك العفو والمغفرة . أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون ، وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان ، وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من الله .

بعد ذلك يربط السياق بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغى . . يربط بين هذا الوعد وسنن الله الكونية الكبرى ، التى تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده ، كما تشهد بدقة السنن الكونية المطردة مما يوحى بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التى لا تتخلف .

« ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير » . .

وهى ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صباحا ومساء ، وصيفا وشتاء . الليل يدخل فى النهار عند المغيب ، والنهار يدخل فى الليل عند الشروق . والليل يدخل فى النهار وهو يطول فى مدخل الشتاء ، والنهار يدخل فى الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف . . ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك من إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل فينسبهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها . فلا تختل مرة ، ولا تتوقف مرة . وهى تشهد بالقدرة الحكيمة التى تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التى يمر عليها الناس غافلين ، ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة ، وهى تطوى النهار من جانب وتسدل الليل من جانب . وهى تطوى الليل من جانب وتنشر النهار من جانب . فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف . . وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغى وهو يدفع عن نفسه العدوان . . إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل . فكذلك يزوى الليل سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين . فهى سنة كونية كتلك السنة ، يمر عليها الناس غافلين ، كما يمرون على دلائل القدرة فى صفحة الكون وهم لا يشعرون !

ذلك مرتبط بأن الله هو الحق . فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون . وكل مادون الله باطل يختل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » . .

وذلك تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغى . وهو

كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها ، وعدم تخلخلها أو تخلفها . ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى .

والله أعلى من الطغاة ، وأكبر من الجبارين : « وأن الله هو العلى الكبير » . . فلن يدع البغى يستعلى والظلم يستطيل .

* * *

ويستطرد السياق في استعراض دلائل القدرة في مشاهد الكون المعروضة للناس في كل حين :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير » . ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح . . ظاهرة واقعة مكرورة . قد تذهب الألفة بجذتها في النفوس . فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس . وإن القلب ليحس أحيانا أن هذا النبات الصغير الطالع من سواد الطين ، بمحضته وغضارته ، أطفال صغار تبسم في غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكاد من فرحتها بالنور تطير !

والذى يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما فى التعقيب بقوله : « إن الله لطيف خبير » . . من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته . فمن اللطف الإلهى ذلك الدبيب اللطيف . دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى ، وهى نحيلة ضئيلة ، وبد القدرة تمدّها فى الهواء ، وتمدّها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقله الطين . . وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر فى إنزال الماء بقدر فى الوقت المناسب وبالقدر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وبخلايا النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور !

والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه ، فينشئ فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء . . والله المالك لما فى السماء والأرض ، غنى عما فى السماء والأرض . وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغنى عنهم وعما يرزقون :

« وإن الله لهو الغنى الحميد »

فما به سبحانه من حاجة إلى من في السماء والأرض ، أو ما في السماء والأرض فهو الغنى عن الجميع . . وهو المحمود على آلائه ، المشكور على نعمائه ، المستحق للحمد من الجميع .

ويستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس في كل حين :
« ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري في البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم » . .
وفي هذه الأرض كم من قوة وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان ؛ وهو غافل عن يد الله ونعمته التي يتقلب فيها بالليل والنهار !

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نوااميسها موافقة لفطرته وطاقاته . ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نوااميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلا على الانتفاع بها وبما فيها . . لو اختلف تركيبه الجسدى عن الدرجة التي يحتمل فيها جو هذه الأرض ، واستنشاق هوائها ، والتغذى بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة . ولو اختلفت كثافة بدنه أو كثافة الأرض عما هي عليه ما استقرت قدماء على الأرض ، ولطار في الهواء أو غاص في الثرى . . ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء أو كان هذا الهواء أكتشف مما هو أو أخف لاختنق هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة ! فتوافق نوااميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذى سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان . وهو من أمر الله .

ولقد سخر الله له ما في الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض ، وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ؛ يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة - وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزا جديدة . وكلما خشى أن ينفد رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد . . وهاهو ذا اليوم لم يستنفد بعد ثروة البترول وسائر الفلزات ثم فتح له كنز الطاقة الذرية والطاقة الايدروجينية . وإن يكن بعد كالطفل يعبث بالنار فيحرق نفسه بها ويحرق سواء ، إلا حين يهتدى بمنهج الله في الحياة ، فيوجه طاقاتها وثرواتها إلى العمران والبناء ، ويقوم بالخلافة في الأرض كما أرادها الله !

« والفلك تجري في البحر بأمره » . . فهو الذى خلق النوااميس التي تسمح بجريان الفلك في البحر . وعلم الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النوااميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع

بها هذا الانتفاع . ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك . أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان .. ما كان شيء من هذا الذي كان !

« ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .. وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له ؛ وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا ..

وكل تفسير فلكي للنظام الكوني ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذي أنشأه خالق هذا النظام . وإن كان بعضهم ينسى هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الكوني ينفي يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ! وهذا وهم عجيب وانحراف في التفكير غريب . فإن الاهتداء إلى تفسير القانون - على فرض صحته والنظريات الفلكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الكونية تصح أو لاتصح ، وثبتت اليوم وتبطل غدا بفرض جديد - لا ينفي وجود واضع القانون . وأثره في أعمال هذا القانون ..

والله سبحانه « يمسك السماء أن تقع على الأرض » بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه . « إلا بإذنه » وذلك يوم يعطل الناموس الذي يعمل له لحكمة ويعطله كذلك لحكمة .

* * *

وينتهي السياق في استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الكون إلى النفس ؛ وعرض سنن الحياة والموت في عالم الإنسان :

« وهو الذي أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحكم ، إن الإنسان لكفور » .

والحياة الأولى معجزة ، تتجدد في كل حياة تنشأ أثناء الليل وأطراف النهار . وسرها اللطيف ما يزال غيبا يحار العقل البشري في تصور كنهه .. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر .. والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه ، وهو يتم في لحظة خاطفة ، والمسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة .. وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر ..

والحياة بعد الموت - وهي غيب من الغيب ، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى .. وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر ..

ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار : « إن الإنسان لكفور » ..

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد عن نفسه العدوان . وذلك على طريقة القرآن في استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب ، وفي ربط سنن الحق والعدل في الخلق بسنن الكون ونواميس الوجود ..

وحين يصل السياق إلى هذا المقطع الفاصل من عرض دلائل القدرة في مشاهد الكون الكبرى يتوجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليمضي في طريقه ، غير ملتفت إلى المشركين وجداهم له ؛ فلا يمكنهم من نزاعه في منهجه الذي اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه .

« لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينزعنك في الأمر ، وادع إلى ربك إنك على هدى مستقيم وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون . ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير » ..

إن لكل أمة منهجا وطريقة في الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد . هذا المنهج خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات . وهي سنن ثابتة مطردة دقيقة . فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته . والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالا كلما زادت اعراضا عن الهدى ودواعيه ..

وهكذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه ، ومنهجهم سالكوه .. فلا داعي إذن لأن يشغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويعمنون في منسك الضلال . والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه في منهجه . كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يتأنت ولا ينشغل بمجادل المجادلين . فهو منهج مستقيم : « وادع إلى ربك إنك على هدى مستقيم » .

فليطمئن إذن على استقامة منهجه . واستقامته هو على الهدى في الطريق . . فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول . فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد :

« وإن جادلوك قل : الله أعلم بما تعملون » ..

فإنما يجدى الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التى تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل . لا مع القلوب المصرة على الضلال المكابرة التى لا تحفل كل هذا الحشد من الدواعى والدلائل فى الأنفس والآفاق وهى كثيرة معروضة للأُنظار والقلوب .. فليكلهم إلى الله . فهو الذى يحكم بين الناسك والناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير :

« والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » .

وهو الحكم الذى لا يجادل فيه أحد ، لأنه لا جدال فى ذلك اليوم ، ولا نزاع فى الحكم الأخير !

والله يحكم بعلم كامل ، لا يند عنه سبب ولا دليل ، ولا تخفى عليه خافية فى العمل والشعور . وهو الذى يعلم ما فى السماء والأرض كله ؛ ومن ضمنه عملهم ونياتهم وهو بها محيط :

« ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض . إن ذلك فى كتاب . إن ذلك على الله يسير » . وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شئ فى السماء ولا فى الأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التى تنبى وتمحو . فهو كتاب يضم علم كل شئ ويحتويه .

وإن العقل البشرى ليصيبه الكلال ، وهو يتأمل - مجرد تأمل - بعض ما فى السماء والأرض ، ويتصور إحاطة علم الله بكل هذا الحشد من الأشياء والأشخاص ، والأعمال والنيات والخواطر والحركات ، فى عالم المنظور وعالم الضمير . ولكن هذا كله ، بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شئ يسير : « إن ذلك على الله يسير » .. وبعد أن يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - ألا يدع للمشركين فرصة لمنازعته فى منهجه المستقيم ، يكشف عما فى منهج المشركين من عوج ، وعما فيه من ضعف ، وعما فيه من جهل وظلم للحق ؛ ويقرر أنهم محرومون من عونہ تعالى ونصرته . وهم بذلك محرومون من النصير :

« ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا ، وما ليس لهم به علم . وما للظالمين من نصير » .

وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله . فما لم ينزل به الله من عنده قوة ، هو ضعيف هزيل ، خلو من عنصر القوة الأصيل .

وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان ، أو من الناس أو الشيطان .. وهذه كلها

لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهي محرومة من القوة . وهم لا يعبدونها عن علم ولا دليل يقتنعون به ، إنما هو الوهم والخرافة . وما لهم من نصير يلجأون إليه وقد حرموا من نصره الله العزيز القدير . وأعجب شيء أنهم وهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا ، وما ليس لهم به علم . لا يستمعون لدعوة الحق ، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول . إنما تأخذهم العزة بالإثم ، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا » ..

إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة ، ولا يقرعون الدليل بالدليل . إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عند ما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل . وذلك شأن الطغاة دائما يشتجر في نفوسهم العتو ، وتهيج فيهم روح البطش ، ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ !

ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد : « قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ » بشر من ذلكم المنكر الذي تنطوون عليه ، ومن ذلك البطش الذي تهمون به . . « النار » .. وهي الرد المناسب للبطش والمنكر « وبئس المصير » ..



ثم يعلن في الآفاق ، على الناس جميعا ، إعلانا مدويا عاما . . يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله . ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون . يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور في مشهد شاخص متحرك ، تملأه العيون والقلوب . . مشهد يرسم الضعف المزرى ويمثله أبرع تمثيل :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الدين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ..

إنه النداء العام ، والنفير البعيد الصدى : « يا أيها الناس » .. فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لائحة خاصة ولا مناسبة حاضرة : « ضرب مثل فاستمعوا له » .. هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة . « إن الدين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » .. كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة . من أصنام وأوثان ،

ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه . . . كلهم « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » . . . والذباب صغير حقير ؛ ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرُونَ - ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا الذباب الصغير الحثير ! .

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل . لأن الذباب يحتوى على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوى في استحالة خلقه مع الجمل والفيل . . . ولكن الأسلوب القرآنى المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن المعجز عن خلقه يلقى فى الحس ظل الضعف أكثر مما يلقى المعجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة فى التعبير . وهذا من بدائع الأسلوب القرآنى العجيب !

ثم يخطو خطوة أوسع فى إبراز الضعف المزرى : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . . . والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناما أو أوثانا أو أشخاصا ! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده . وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو فى الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أعلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح . . . إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمم . . . ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير ! .

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآنى المعجز . . . ولو قال . وإن تسلبهم السباع شيئا لا يستنقذوه منها . . . لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف . والسباع لا تسلب شيئا أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآنى العجيب !

ويختتم ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب : « ضعف الطالب والمطلوب » . ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب !

وفى أنسب الظروف . . . والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله :

« ما قدرُوا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز » . . .

ما قدرُوا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليمة العاجزة التى لا تخلق ذبابا ولو تجمعت له . بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقيق !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليّة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوى العزيز . .

إنه تقرير وتقرّيع في أشدّ المواقف مناسبة للخشوع والخضوع !

وهنا يذكر أن الله القوى العزيز يختار رساله من الملائكة إلى الأنبياء . ويختار رساله من البشر إلى الناس . وذلك عن علم وخبرة وقدره :

« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس . إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . وإلى الله ترجع الأمور » .

فعن صاحب القوة العزيز الجنب يصدر الاختيار للملائكة والرسل . ومن لدن القوى العزيز جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - جاء بسلطان من عند القوى العزيز الذي اختاره واصطفاه . فأثنى يقف له من يركنون إلى تلك الآلهة العاجزة الضعيفة المزدرة ؟ !

« إن الله سميع بصير » . . فهو يسمع ويرى فيعلم « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » علما شاملا كاملا ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، ولا قريب ولا بعيد .

« وإليه ترجع الأمور » . . فهو الحكم الأخير ، وله السيطرة والتدبير .

والآن وقد كشف عما في منسك المشركين من سخف وضعف ؛ وعما في عبادتهم من قصور وجهل . . الآن يتوجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ، لتنهض بتكاليف دعوتها ، وتستقيم على نهجها العريق القويم :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ؛ وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير » . .

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها ، ويقرر مكانها الذي قدره لها ، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل ، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله .

إنه يبدأ بأمر الدين آمنوا بالركوع والسجود . وهما ركنا الصلاة البارزان . ويكنى عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة ، وحركة ظاهرة في التعبير ، ترسمها مشهدا شاخصا ، وهيئة منظورة . لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثرا وأقوى استجابة للشعور^(١) . ويثنى بالأمر العام بالعبادة . وهي أشمل من الصلاة . فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله . فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله . حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات . وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها ، وينوى بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات ، ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه !

وينتظم بفعل الخير عامة ، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة . .

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح . فهذه هي أسباب الفلاح . . العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل . وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة ، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه .

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة . فاستقام ضميرها واستقامت حياتها . . نهضت بالتبعة الشاقة :

« وجاهدوا في الله حق جهاده » . . وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفا ضخما ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد . .

« وجاهدوا في الله حق جهاده » . . والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . . . كلها سواء .

« وجاهدوا في الله حق جهاده » . . فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » .

بين عباده : « هو اجتباكم » . . وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار ! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء ! .

وهو تكليف محفوف برحمة الله : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . . وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ فيه تلييته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناد والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخار المكثوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم !

وهو منهج عريق أصيل في ماضى البشرية ، موصول الماضى بالحاضر : « ملة أبيكم إبراهيم » وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضية لمعالم العقيدة كالفجوات التى كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام .

وقد سمي الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين . سماها كذلك من قبل وسماها كذلك فى القرآن : « هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا » . .

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » . . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهى تشهد على الناس بمثل هذا ، فهى القوامة على البشرية بعد نبيا ؛ وهى الوصية على الناس بموازين شريعته ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهى أمانة على نهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استعسكت بذلك المنهج الإلهى وطبقته فى حياتها الواقعية . حتى إذا انحرفت عنه ، وتخلت عن تكاليفه ، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع فى ذيل القافلة . وما تزال . ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذى اجتباها له الله .

هذا الأمر يقتضى الاحتشاد له والاستعداد .. ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله :

« فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ . هُوَ مَوْلَاكُمْ . فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير » ..
فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفانى بمصدر القوة والازاد . والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد . والاعتصام بالله العروة الوثقى التى لا تنفصم بين المعبود والعباد .

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التى اجتباها لها الله . وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التى تعارف الناس على أنها مصادر القوة فى الأرض . والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها ، بل يدعو إلى إعدادها . ولكن مع حشد القوى والطاقات والازاد الذى لا ينفد ، والذى لا يملكه إلا المؤمنون بالله . فيوجهون به الحياة إلى الخير والصالح والاستعلاء .

إن قيمة المنهج الإلهى للبشرية أنه يمضى بها قدما إلى السكال المقدر لها فى هذه الأرض ؛ ولا يكتفى بأن يقودها للذائد والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام .

وإن القيم الإنسانية العليا تعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عن هذه المداخل الأولى . وكذلك يريد الإسلام فى كنف الوصاية الرشيدة ، المستقيمة على منهج الله فى ظل الله ..

تم الجزء السابع عشر ، ويليه الجزء الثامن عشر
مبدوءا بسورة المؤمنون .

كتب للمؤلف

- ١ - في ظلال القرآن (في ثلاثين جزءاً) دار إحياء الكتب العربية
- ٢ - العدالة الاجتماعية في الإسلام (طبعة رابعة) » » » »
- ٣ - معركة الإسلام والرأسمالية (» ثانية) دار الإخوان للطباعة والصحافة
- ٤ - السلام العالمى والإسلام (» ثانية) مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعايدى
- ٥ - دراسات إسلامية (» أولى) مكتبة لجنة الشباب المسلم
- ٦ - التصوير الفنى فى القرآن (» ثالثة) دار المعارف
- ٧ - مشاهد القيامة فى القرآن (» ثانية) » »
- ٨ - النقد الأدبى : أصوله ومناهجه (» ثانية) دار الفكر العربى
- ٩ - أشواك (» أولى) دار سعد مصر بالفجالة
- ١٠ - طفل من القرية (» ») لجنة النشر للجامعيين
- ١١ - الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) » » »
- ١٢ - القصص الدينية (بالاشتراك مع الأستاذ السحار) » » »
- ١٣ - الشاطئ المجهول (شعر) . . . نقد
- ١٤ - كتب وشخصيات (نقد) . . . »
- ١٥ - مهمة الشاعر فى الحياة (») . . . »
- ١٦ - نقد كتاب مستقبل الثقافة (») . . . »
- ١٧ - المدينة المسحورة (قصة) . . . »

الكتب التالية

- | | |
|-----------------------|--------------------------|
| (١) نحو مجتمع إسلامى | (٢) أمريكا التى رأيت |
| (٣) حلم الفجر (شعر) | (٤) قافلة الرقيق (شعر) |

